محمد الهادي الجزيري

النّطيحة والعرجاء
وما خلّف الجهل



نصوص



الدار التونسية للكتاب

النّطيحة والعرجاء

وما خلّف الجهل

عنوان الكتاب:	النّطيحة والعرجاء وما خلّف الجهل
المؤلف:	محمد الهادي الجزيري
النوع:	نصوص
الطبعة:	الأولى 2014
الناشر:	الدار التونسية للكتاب
العنوان:	43-45 شارع الحبيب بورقيبة- الطابق الأول مدرج "د" الكوليزي - المكتب عدد 130
الهاتف/الفاكس:	98441468 -71339833
البريد الالكتروني:	mtl.edition@yahoo.fr
المطبعة:	التونسية للطباعة والاشهار حي غدير غراج 5000 - المنستير
الموزع داخل تونس وخارجها	الشركة التونسية للصحافة SOTUPRESSE
ر.د.م.ك:	ISBN: 978 - 9938 - 890 - 22 - 8

محمد الهادي الجزيري

النّطيحة والعرجاء

وما خلّف الجهل

نـصـوص



الدار التونسية للكتاب

حشرجة جثّة تسعى في الأسواق

مشتاق إلى ذوات كثيرة وأشياء شتّى، بي حنين شرس إلى أمّـي، تلـك الـشجرة الحانيـة التـي انتهت قبرا واجما، زاده البياض حيادا، أين منّي وجه أمّي، بسمتها الأصـفى مـن الـصفاء، عتابهـا لي آخر الليل وتحفيزها للشاعر القانط كلّ صباح، أين منّي حضنها وغناؤها وهي تهدهدني أنا الطفل والشاب والكهل، لم أعرف اليتم يوم غاص أبي الرحيم في التراب، واليـوم تـشهد كائنـاتي وأشـيائي أنّي اليتيم، كهل نعم ومشرف على هوّة الخمسين ولكنّي أحتاج أمّي بكلّ ما في النفس من شجن وحيرة وخوف وغضب، أحتاجها لألعن في حضرة عينيها الحليفتين غلمانا أكلوا من جرابي وشربوا من كأسي واستظلّوا بظلّي...، لم أبخل عليهم بشيء وعلّمتهم الرماية والغواية والشدو، واليـوم تحلّقـوا في كـلّ بـؤرة وحـضيض، لـنهش لحمـي وحـروف اسـمي...، آه أمّـي كيـف سـمحت لنفـسي بتـسليمك إلى التراب؟.....

حنيني شائك ومتشعّب مثل حزني تماما، وكياني مكـتظّ بـالوجوه والـذوات، لكـم أتـوق إلى عناق ابنة الجيران، وليس السيدة التي افتكّت منها اسمها وبعضا من دلالها وغنجها، أنا أشـتاق إلى الأخرى.. الزهرة الرهيفة والموجة المنسابة والمجنونة مثلي، لا.. بل مثل ذلـك الطفـل الأشـقر الـذي سطوت على اسمه وبعض من ملامحه وعناده، أين منّي التحامي بالوردة في السقيفة المظلمة، أين منّي ترنّحنا في حرائق الشتاء والصيف، أين منّـي جـسدان شرهـان لطفـل وطفلـة، أيـن مـن رأسي المتصدّعة خلوّ الذهن من كلّ همّ وازدحام القلـب بوجـه فـاتنتي البريئـة مـن كـلّ دم، أيـن منّـي مواؤها السريّ في طيّات الحيّ الشعبيّ....

خساراتي فادحة أيتها الحياة، فقدت صلاح الدين ساسي الشاعر الصديق الذي قرّر في ربيع 1988 أن يتأرجح في غصن شجرة، ثمرة لم تنضج ولم يحن قطافها، لكنّها متاحة ليد العدم..، خساراتي فادحة أيتها المهزلة، أضعت في الطريق رفيقا آخر، شغف به الموت وقد كان " آخر زهرة ثلج *"، لكم عاند محمد البقلوطي موته الذي اتّخذ في البداية شكل مرض السكّري واندسّ في خلايا الشاعر العاشق.. ثمّ حجب عن عينيه نور الحياة ووجوه من يحبّ، وبعد أن ذهب ببصره أتى على جسده النحيل، وكانت كلّ عناصر الجمال والشعر والحبّ تصرخ: "لا تمت يا محمد **" لكنّ محمّدا استسلم في النهاية وبعد عناد أسطوريّ لقدره الغاشم....

ما أطول طابور خساراتي: رعد مطشّر المخرّب بالرصاص في عراق الدم والغمّ والجنون، بختي بن عودة المذبوح في جزائر السكاكين وبقر البطون، رضا الجلالي الذي أتلف كبده عمدا بما سكبه في حلقه من عطور، ... ما أطول طابور خساراتي وما أحلك هذا النصّ، رغم أنّه قطعة صغيرة جدّا من الغيمة الكامنة فيّ، هل أنا حيّ لأموت؟، وهل من فقدتهم ليسوا أجزاء منّي؟، ألم تمت منّي أجزاء كثيرة؟، وإن كان لها أسماء أخرى وعناوين قريبة وبعيدة، ألم تكن أختي الرائعة البهيّة أطوار بهجت قطعة من نفسي؟، ألم يقتطع منّي الموت أشجارا شاهقة ونفوسا عظيمة؟، ... فكيف لم يأبّني أحد إلى حدّ الآن.. بل إلى حدّ هذا الحزن والموت اليوميّ؟، ألا بدّ من انقطاعي عن توريد دخان السجائر إلى رئتيّ المذهولتين ليتمّ إعلان موتي؟، وهل عليّ تغيير لحاف كوابيسي بكفن شديد البياض لكي يصعق الأصدقاء ويرقص الأعداء ويوقنوا أنّني جثّة تسعى في أسواق الحياة وتصطدم بالأضداد والحواجز الكثيرة؟

ميّت أنا ومشتاق إلى الحياة، "يا أيّها الموتى بلا موت تعبت من الحياة بلا حياة***" مشتاق إلى القصيدة.. لم تزرني منذ ليال طويلة، ومع ذلك مازلت أحبّها وأحبّ من تحبّه ويحبّها، ما زلت أهذي من حنين وحمّى :

" أيها الشعراء

قد انتصف الليل ولم تأت قصيدتي بعد

أحدس أنّها تخونني مع أحدكم

وأرجو أن يكون فحلا "

* عنوان إحدى مجموعات الشاعر التونسي الراحل محمد البقلوطي

** جملة تكرّرت عديد المرّات في آخر قصائده

*** من مدوّنة الشاعر سميح القاسم

دخلنا الأرض من باب الغرام

منذ مساء البارحة وأنا مقرّ العزم على أن يكون موضوع مقالتي هـذه المـرّة، فوبيـا المـوت التي انتشرت بين زمرة من أصدقائي الأدباء في تونس وليبيا، في حمّى الحملة المـسعورة التـي يقـوم بها هادم اللذات ومفرّق الجماعات خلال الأشهر الأخيرة، والتي قطف خلالها باقة كبيرة نسبيّا مـن مبدعينا في القطرين الشقيقين، آخرهم القـاص التونـسي ابـراهيم بـن سـلطان الـذي وافـاه الأجـل المحتوم منذ أيّام قليلة، هكذا بغتة وهو يزاول وظيفتـه كمتفقّـد تعلـيم بأحـد المعاهـد الثانويـة.. رحمه اللـه وتغمّدنا نحن بالصبر عـلى فـراق عديـد الأحبـة: عـلي صـدقي عبـد القـادر، محجـوب العياري، محمد الهريوت، جعفر ماجد، بلقاسم المـزداوي.. وقائمـة المخطـوفين حزينـة وطويلـة.. .، كنت إذن أنوي الكتابة بسخرية عالية عن المذعورين من المـوت، وكـأنّهم وُعـدوا سـابقا بـالخلود، لكنّني اصطدمت هذا المساء بكائن حيّ، شديد النبض، مغـرور كـما يجـب لمثلـه أن يكـون، تقـول عيناه لمن يقوده إليه حظّه العاثر: ستموت شوقا إليّ أيها الآخر...

يا قوم من منكم قادر على شفائي من عشقي الأخير؟، لا أحد طبعا، وما سؤالي سوى صرخة المنحور الأخيرة، عدت إلى ركني القصيّ مذهولا ممّا حدث لي، ألقيت محفظتي بما فيهـا مـن كتـب ومشاريع نصوص، ودفاتر وأرقام هواتف وأقلام و...، ألقيتها في مكان ما من البيت.. أو في الجحـيم، وتهاديت إلى مكتبي لأنقل إلى جهاز الكمبيوتر بعض ما شُحنت به من شده وحنين وحمّى، وكنـت أنوي إفراغ هذه الحمولة المسمومة في مقالـة سـاخرة مـن أصـدقائي المـرتجفين مـن جولـة المـوت الأخـيرة، ولكـن هـا إنّي أكتـب عـن ذئبـة رهيبـة صـادفتها في غياهـب الغابـة المتحـضرة...، ألقـت

السلام على من كانوا معي ووجّهت عينيها الباذختين إليّ وخصّتني بالجملة الملغومة التالية: " أعرفك ولست أدري أين رأيتك "، وهذا هو الجور يا قوم، كهل مشرف على الخمسين، يحاول التماسك لينهي يوم عمله، ويعود إلى غربته الأثيرة، تنقضّ عليه ذئبة قاهرة الجمال، معتدّة الروح والجسد، هكذا دون جرم اقترفه ودون أن تكلّف نفسها البسملة قبل أن تقترف جريمتها البديعة المذهلة، والمضحك أنّ نقاد الأدب (قرّاء صفحات الوفيات)، سيختلفون في ماهية هذه الذئبة إن كتبت عنها (سأكتب) قصيدة محمومة تليق بذئبة من نار وقتيل من كلمات، ألم يوشكوا أن يعرضوا معشوقة أبي القاسم الشابي على الجهات المختصة في فرز الجنسيات من بعضها البعض، فقد أكّد أساتذة أفذاذ أنّها سائحة أجنبية لمحها الشابي في الأسواق، وألحّ جهابذة آخرون على حتميّة وجود قرابة بينهما وأقسم أكثرهم عنادا بطلاق زوجته وأمّته إن لزم الأمر، أنّها من وحي خياله...، وحتّى لا يضطرّ السادة النقاد إلى الاحتكام إلى العدالة، أعترف أنّها من أروع ما عرض التيه عليّ وكفى، دعونا نعشق أيها المولعون بدسّ أنوفكم في جراحنا وغيومنا، وافعلوا شيئا آخر عوض التهام لحم الموتى من مبدعينا، قوموا بأمر آخر، كأن تعشقوا مثلي مثلا، وتعترفوا بذلك، وتكتبوه وتواجهوا به كلّ حيّ وميّت أيضا، فالعشق روح هذه الحياة ومحرّك الوجود منذ كان، لذا أنا سعيد الليلة رغم ما يعتمل داخلي من عواصف وزلازل وفوضى عارمة، نعم لكم أنا مزهوّ بي، فرغم المناخ الجنائزي الذي يطغى على هذه الأمّة التي تعبد الحزن وتنظّر للخوف وتحذّر المواطن المقهور من أهوال القبور، رغم ما ذكرت وما تجاوزت من هموم، لم أكتسب مناعة ضدّ العشق والولع بكلّ شيء جميل، بدءا بالوجه الإنساني المدهش، والجسد الأنثوي المرعب، ولقد كتبت في إحدى قصائدي القديمة ما يلي:

" الحبّ عندي أن أتوه برفقة الوجه الحسنْ

الحبّ أن ألقاك وحدي، ما معي غير الكفنْ

الحبّ أن أرضى بموتي دون شرط أو ثمنْ

الحبّ عندي أن أموت على يديك ولا أئنْ..."

نعم أنا مع الموت حبّا للحياة وعشقا لتمظهراتها الكثيرة، وولعا بمصارعة القبح والكبت والتعقّف المبالغ فيه الذي يستبطن حيوانيّة مكثّفة، نعم للموت حبّا وعشقا وعنادا إذن، أمّا الموت من شدّة التفكير في الموت، والخوف من أمر لم نجرّبه بعد، فلا وألف لا، ليأتي الموت متى يشاء.. ولعلّه سبيل نجاة، وليكفّ أصدقائي من التوجّس خيفة منه، ولهم أن يحترقوا مثلي بنار العشق.. لينتهوا يوما ما رمادا فتذروهم الرياح ولا يعثر عليهم هذا المسمّى الموت...، يا جماعة لن أنهي مقالتي بالموت بل سأنهيها هكذا :

" دخلنا الأرض من باب الغرام   وقضّينا الصبا عند الوصال

سخيّا كان يسقينا الحياة   يناولنا الكؤوس على التوالي

ويبدو أنّنا لم نصح يوما   لننظر في الحرام وفي الحلال "

أيتها الجديدة في حياتي

والقديمة في ذاتي

أحبّكِ...هكذا بكلّ بساطة، وجدتْني وجها لوجه مع بياض الورقة فكتبتُ: أحبّكِ، لا أعلم كيف تمّ الأمر لكنّه وقع وأمسى بوحا لا لبس فيه، واعترافا ملزما لي في حضرة عينيك وفي المحافل المحليّة والدولية..، وقع قلبي على الورقة كما وقع حبّك على أمّ رأسي وأنا أحدّق في هوّة الخمسين، وهذا أقسى ما يمكن أن يحيق بي وأنا المسافر رغم أنفي إلى القبر، تقلّصت المسافة بين الموت وبيني، بين الغياب وأوراقي المرقّطة والبيضاء، ومن المضحك حتّى البكاء أن يقع عليّ حبّك هكذا مثل نيزك متّقد، لا سلام ولا كلام ولا مقدّمات، لم يستشر قلبي مثلا، قلبي المغلق مثل نزل قديم متداع للسقوط، ولم يستأذن عقلي المشغول بتلبية رغبات المجموعة الوطنية وإرضاء قرّاء المقابر أو نقّاد الشعر الحديث كما يشاع

على عقلي الذي حرّمتِ عليه الصفاء والنوم، أن يحبّر أقصى ما يستطيع من الأوراق: قصائد لضمان أكبر نسبة ممكنة من الخلود في أمّة لا تقرأ غير أخبار الراقصات وضاربي الكرة، وعليه أن يكتب اهرامات من المقالات التقديمية لإصدارات حديثة وقديمة، ليقدّمها بنبرة واثقة ووجه باسم في برامج إذاعية وتلفزية، وعليه أن يتفنّن في صياغة مطالب كثيرة، من ضمنها التماس قبول ابني الأكبر في تربّص لدى إحدى المؤسسات السياحية، وعليه..... ما لا طاقة له به، خاصة بعد تفشّيك فيه..، ماذا تريدين منّي أيتها الزهرة العابثة بأرواح الخلق؟، أولا يكفيني ما أكابده من ضيم يوميّ من قبل القاصي والداني، كلّ من ألقي عليه تحيّة الصباح

يلقي عليك غيومه، كلّ من يقودني حظّـي العـاثر إلى الزاويـة التـي يكمـن فيهـا، يـنقضّ عـليّ بحزمة من المطالب، أهونها سيجارة أو قهوة مع الإنصات لهلوسته الإبداعيـة، كيـف سـمحت لنفسك المدهشة بإغواء كهل مثلي محاصر من قبل شعراء آخر زمن، اختصروا الساحة الأدبيـة في الشارع الرئيسي للعاصمة التونسية، وتراكموا في زواياه وأركانه بضاعة فاسدة، وقطّاع طريق مختصّين في الحذلقة اللفظية، من دلّك عليّ أيتها القطة الوديعة الضارية؟، ألم يخبرك أحد أنّني أحزن من جيش مهزوم؟، كنت أجرّ خيباتي وأنعطـف في اتّجـاه الخمـسين، شـاكرا قـدري عـلى إعفائه لي من الجنون أو التشرّد مثل بعض النخب المثقفة، ولكنّك قطعت عليّ رحيلي الهادئ، وحوّلت وجهة روحي إلى الجحيم، ومع ذلك أزداد شغفا بك نفَسا إثر آخر، أحبّك نعم وأحـبّ كلّ شيء يمتّ إليك بصلة، حتّى أعدائي الخلّص من أشباه المبدعين التونسيين والعـرب أمـسيت أكنّ لهم حبّا لا غراب عليه، كيف أكرههم أيتها الجلاّدة التونسية العربية، وهم أبنـاء جلـدتك وبنو أمّتك؟، لقد كتبت عنك قصائد عديدة، نزفتها في متاهات غيابك، ومن العجـب العجـاب أنّ جلّ من بثثتها لهم، لم يبكوا عليّ بل منهم من ابتسم ومنهم مـن رفـع حاجبيـه استحـسانا ومنهم من صفّق وطالبني بالمزيد، فيا سبحان اللـه ما أقسى القارئ على الكاتـب، ومـا أغـرب علاقة العاشق القتيل بالمعشوق القاتل، تمعنين في جلدي وأنا كلّما اشتدّ الجلد أوغل في الشدو، بل إنّ الأشدّ غرابة من كلّ ما ذكرت أنّني البارحة التمست منك وأنـت تنحرينـني بعينيـك أن تقبلي منّي ديوان ابن زيـدون، وكنـت قـد اشـتريته هديّـة لـك، لـكي لا يؤنبـك ضـميرك أثنـاء تعذيبي، إذ لست أوّل ظبية اصطادت صيّادها ومثّلت بـه...، عليـك الـسلام أيـنما كنـت الآن،

عليك السلام غافية كنت أو متوهّجة في حضن الماء، أو محدّقة في مرآتك ومتوعّدة العالم بخراب عظيم عميم، عليك السلام أيتها الجديدة في حياتي والقديمة في ذاتي:

" من قديم أحبّك

من قبل أن أتهجّى حروف المؤدّب

كنتُ أسمّيك حلوى

وما كنت أقصد إلاّكِ... لكنّهم أغبياءْ

كم رسمتك في اللوح عصفورة

ومحوت الكلامْ

لأنّ المؤدّب أعمى، يرى أجره والعصا

ولأنّي تدلّيت من غيم أمّي، فقط لأرى

وجهك المتوهّج بين يديّ وتحت فمي

يا فضيحة كلّ النساءْ "

رمضان على مدار السنة

مرّ رمضان وتكلّل مهرجان المودّة والرحمة بالعيد، فليكن النجاح حليف الجميع في الموسم الثقافي الجديد، دون استثناء الأعداء طبعا، فمن حقّي على نفسي أن أفرض عليها هدنة قصيرة ومن واجبها أن تتعرّى قليلا للآخرين ليدركوا أنّ الحبّ طبيعتها، والطبع يغلب التطبّع، الصراع سيتواصل حتما فالوجود مبنيّ عليه، ولا شيء يدور خارج حلبة الصراع وإن اتخذ أشكالا مستوحاة من الحمام وارتداء الأبيض مثل جثّة استسلم صاحبها لمخالب الغياب....

أعتقد أن لا خلاص للإنسانية ممّا تعانيه من حروب وغزوات متبادلة وتكالب على الأخضر واليابس إلاّ باعتناق الحبّ والإيثار، نعم الإيثار...، بي وعي حادّ أنّ الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، لكنّه يتميّز على بقيّة الوحوش بقدرته على تجاوز ذئبيته إن أراد ذلك، ولقد أسهبت في تفصيل هذه المسألة في طيّات روايتي " جنّة الحيوان "، وها إنّي أكرّر النداء: لنعتصم بالحبّ والإيثار رجاء ولندجّن الذئب الكامن في الإنسان، لنقيّد شهوته ونكبح جشعه ونعوّضه عن خسائره الباهضة بلذّة العطاء والرحمة والرفق بمن حوله من ذئاب طيّبين، وما هم بطيّبين، لكنّهم لم يجدوا الوسيلة والقدرة على الجور والإيذاء والضمّ واللمّ، ما أصدق وأفصح بيت الكبير المتنبي طبعا:

" الظلم من شيم النفوس فإن تجد   ذا عفّة فلعلّة لا يظلم "

لست بصدد محاولة النيل من الإنسان وتشويه سمعته، فهي مخجلة أصلا، وقد اكتسبها عبر سفره الطويل من الكهف إلى الكوخ إلى البيت إلى القصر...، مجازر لا تحصى وانتهاكات مثل حصى الوديان واغتصاب دؤوب للعرض والأرض وكلّ ما يقع في مجال عينيه، أو ما يصل إلى أذنيه من أخبار عن ولائم الكوكب المشتعل، أريد فقط أن أتصالح مع جميع إخواني الذئاب المنضوين تحت لواء عائلتي والحيّ الشعبيّ الذي أكمن في أحد بيوته، والمنتمين إلى وطني وأمّتي والإنسانية جمعاء.. .، يا إلاهي كم سأصارع من ذئب في هذا العبور الاضطراري المسمّى: حياة.....

أريد السلام يا خلق، تعبت ولا شكّ أنّ العديد منكم على وشك "الديخوخة"، من فرط الصراع المحموم على الفوز بأكبر قسط ممكن من اللذة والمتعة والراحة والسلطة خاصة، أنا اليوم أعلن استسلامي لكم واكتفائي بالقليل القليل، فبعد ما يقارب الخمسين سنة من التحايل على الحياة والركض في دروبها وعبر مزالقها، أشعر باللا جدوى من كلّ هذا اللهاث، والمشاركة في لعبة الأضداد المرتكزة أساسا على التزاحم والتنافس والتآمر الذي نطلق عليه نحن معشر الشعراء تسمية لطيفة، فما هو غير نميمة خفيفة نتذوّقها في خلواتنا البريئة، على كلّ حال...: " بعْ بعْ، صحّة ليكم وبالشفاءْ "، لن تأخذوا معكم إلى ضيق القبر غير الوهم مثل الملايين ممّن سبقوكم، يا جماعة، يا إخوتي الذئاب، والله ثمّ والله إنّ الحياة حلوة كما صدح بذلك فريد الأطرش، وهذا الكوكب التائه بين المجرّات يتّسع لنا جميعا، بشرط أن نحدّد سرعة الغضب وأن نوقف محرّك الشهوة ونجلس إلى الحبّ من حين إلى آخر، تعالوا نجرّب الحبّ والإيثار، وثقوا أنّ فيهما لذّة عظيمة، أليس ديدنا الفوز باللذة منذ كنّا، فلنجرّب لذّة أخرى، لعلّها جديدة بالنسبة للأغلبية الساحقة، كما يقال في فرز

الأصوات الانتخابية، ثمّ ألم نمـلّ بعـد لـذّة الـبطش والقتـل والاغتـصاب وغيرهـا مـن اللـذّات التـي تجاوزت جميعها تاريخ صلوحيّة استهلاكها، تسمّمنا يا خلق ولكن ما زال فينا نبض من أمل، نـبض يزداد قوّة ووضوحا كلّما حلّ رمضان، فيصبح لفقيرنا نصيب من غنائمنا، ويمـسي اليتـيم أحـد أفـراد الأسرة أو العائلة، كما تنجو الأرملة من صدقاتنا المسمومة إذ أنّ أغلبنا يقدّم الصدقة في هذا الشهر الكريم لوجه الـلـه وفي سبيل الحبّ.. .، لماذا إذن لا يدوم كرمنا وإيثارنا وعطفنا على الآخرين عـلى مدار السنة، لنحقّق إنسانية هذا الكائن الذئبيّ الرهيب... والجميل في الآن نفـسه...، لننتـصر أيهـا الأدباء والمبدعون لأخينا الإنسان، ولتصبح جميع أيّامنا رمضان.. .

كلّ عام والخير أكثر وأعمّ

" ما في الجبّة غير الطين

وما في القفّة غير الديْنْ

لكنّي لن أسلمكم هذا الإنسانْ

لن أمحو وجه الفنانْ "

تحيا الثقة.... والضحك كذلك

لنضحك قليلا في زمن الغمّ والهمّ والضمّ واللمّ وما يقال وما لا يقال...، يقال إنّ الإنسانية الكريمة تعيش أزمة ثقة تشمل كلّ شرائحها المتوهّجة والمصهودة، وهذا افتراء وظلم وتشويه لسحنة هذا الزمن البهيج، ولدحْض هذه التهمة الغريبة التي يراد إلصاقها بجبين الإنسانية الناصع الساطع، أورد بعض الحجج والبراهين والأمثلة الدالة على الانسجام وحالة الثقة المتفشّية في الأفراد والجماعات والشعوب والأمم.

ـ تشهد المطاعم الشعبية والنخبويّة أنّ إنسان اليوم يغمض عينيه ويصل طائعا إلى مطعم ما في ركن من أركان الغابة، لا يعرف نسبة نظافة صاحبه ولا مصدر الخضر واللحوم التي تتكدّس داخل المطبخ المفصول بجدار سميك يحجب الرؤية والرؤيا ويقف حاجزا أنيقا ومحترما في وجه الحدس والريبة والشكّ، ولا يسمح بمرور معلومة واحدة إلى الجائعين غير الرائحة... أحيانا، ومع ذلك يلتهم صديقنا الإنسان ما يقدّم إليه دون أن يطرف له جفن واحد ويدفع الحساب وقد يترك بقشيشا للنادل الذي يبدو نظيف الهندام والجسم والروح والله أعلم، فماذا نسمّي هذا السلوك الحضاري وإن اتّسم بالغباء؟، غير ثقة عمياء في الآخرين من صنف الطبّاخين الحريصين على ملء بطوننا بما يجمعونه من حيث لا ندري، إضافة طبعا إلى ثقتنا الفادحة في الإخوة المراقبين وأعوان جمعيات " الدفاع عن المستهلك " وهم من خلق الله مثلنا ومعرّضون للطمع والسهو مثلنا... فجلّ من لا يسهو....

ـ على مدار الساعة... نتواصل مع الإخوة سائقي التاكسيات وسيارات الأجرة الرابطة بين المدن والقرى والخراب العميم، نركب حذو السائق أو خلف ظهره المحايد ونحن مرضى مثلا أو حزانى أو سكارى، ونسلّمه مقود حياتنا، لم نحضر معه مرّة واحدة حصّة واحدة من تدريباته الشاقة في سبيل حصوله على رخصة السياقة، وقد يكون تحصّل عليها في شكل هديّة من قبل عاشق أخته مثلا، أو زوج أمّه المرحومة أو هي رشوة لا ريب فيها، ورقة ممضاة مقابل رزمة من الأوراق النقدية المنتمية إلى وسخ الدنيا ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، المهمّ أنّنا نلج سيارته في اطمئنان مبالغ فيه أحيانا، ونسترخي على إيقاع ثرثرته أو اختياراته الغنائية المذهلة، ولا نتساءل أبدا عن نسبة الصحة التي ينعم بها، وعن سلامة عقله من كلّ لوثة أو جموح، وعن ليلة البارحة، هل كان نومه عميقا أم غفا لحظات في ملهى ليليّ أو على مقعد صلب في قسم الإسعاف بمستشفى المكان كما يقال، والأهمّ من كلّ ذلك، أنّنا نجرؤ على تسليمه أطفالنا، فلذات أكبادنا، وأمّهاتنا وأخواتنا الرهيفات وزوجاتنا المصونات، ونشدّ على يده بحرارة فبل أن يذهب بالعائلة إلى المجهول أو العنوان المعلوم إن لطف الله...، فكيف يجرؤ بعض المتجهّمين على التشكيك في متانة الثقة التي تربط أفراد مجتمعات اليوم؟

ـ الأمثلة عديدة ولا حصر لها، كالصعود إلى الغيوم في ظلّ قائد طائرة لم تحظ حتّى بلمح وجهه، وتسلّق عمارة شاهقة في ضيق قبر عموديّ اتفق على تسميته بالمصعد، لا علم لك بأحوال أسلاكه وأحشائه وهل تمّت صيانته من قبل أحد، أم أنّه متروك لقدره وقدر مستعمليه، منذ جيء به من المصنع الياباني أو الألماني.

ـ لا تنتهي ثقتنا بالآخرين باستقالتنا من التنفس، بل تـستمرّ ونحـن ممـدّدون بـين أهلنـا والغرباء، نعم الغرباء، يدخلون بيوتنا من أبوابها ويستظلّون بظلال من نحبّ من الإناث والغلمان، وتتصاعد تنهيداتهم وآهاتهم في أركاننا الحميمة، وتمتدّ أيديهم إلى ما تعدّه حبيباتنا من ولائـم (مـا لذّ وطاب) فيأتون على الموائد وما عليها تـرحّما علينـا، ثـمّ يتهـافتون علينـا ويأخـذوننا إلى ممالـك التراب والغبار حيث يلقون بنا في حفرة، ويتنافسون على ردمنا وغلق كلّ منافذ النور والهواء، سـترا وإكراما لنا، أليس إكرام الميت في دفنه والعودة إلى مواساة أهله...، تحيا الثقة... والضحك كذلك....

قنوط

دع الحياة تقوم بأدوارها الظاهرة والمستترة، وثق بها قليلا بل كثيرا، لن تستطيع جمع الماء والنار والزئبق والريح والتراب في ضفة واحدة، ثمّ إنّك هشّ ومحدود رغم غرور عقلك المسكين، هذا المدّعي منذ كان، أنّه قادر على حلّ معضلات إقامتك في الأرض، وتحديدا في غياهب هذه الغابة الحديثة، من أنت؟، بل ما أنت؟، كائن يؤثّر فيه القرّ والحرّ، وتتهدّده آفات كثيرة بدءا بالحاجة، ومرورا بالمرض، وانتهاء بالموت، تواضع أيها الرافد الصغير، فمثلك آلاف وملايين، وحولك السباخ والمستنقعات، ولا مهرب لك، لا مناص من احتكاكك بالوحل والاستسلام لقانون الغاب، رفضت طوال تشرّدك في اليباب أن تكون آكلا أو مأكولا، وها أنت تشرف على هوّة الخمسين مسموما بعنادك الفتّاك، وهل يعقل أن تذهب إلى قبرك دون أن تعترف بندمك على إيمانك بالوهم.

أين الإنسان؟، أين الآخر الذي دافعت عنه وكذّبت القائلين بذئبيته؟

أين ثورة العشاق والفقراء التي كرّست حياتك الوحيدة للتبشير بها حتّى اهترأت أناملك ولسانك؟، تسلّل الشيب والوهن إليك وأنت تعاين ولادة الثورات لإقطاعيات حديثة، وتحوّل الثوّار إلى باعة أقنعة وابتسامات.

أين المثقف صديقك وحليفك؟، انتهى مصّاص دماء وبوقا ذا صفاقة مذهلة، انتهى خطيب مقاه وحانات واتّخذ من رصيده المعرفي الذي كدّسته بين يديه أجيال وأجيال مادّة لغويّة، زئبقيّة سحريّة، للضحك على ذقون أفراد الشعب واحدا واحدا، دون استثناء الحاكم بأمر الله.

أين الأدب الذي استقلت من أجله من وظيفتين ووضعت أسرتك في كفّ عفريت مرّتين؟، بصرف النظر عن الانهيارات الأخرى الصغيرة منها والكبيرة، أين الأدب والشعر والثقافة ؟، تكاد تكتب لنفسك ولنديم غائم يقرأ حظّه في الجريدة ثمّ يلقي بها بعيدا، لمن تواصل الكتابة يا كاتب " أرتميدا " و" ليس لي ما أضيف " و" زفرات الملك المخلوع " وغير ذلك من قطع الروح والجسد ؟

لمن يكتب هذا القطيع المرشّح للانقراض؟

إنّ الناس يركضون من الفجر إلى الفجر وراء بطونهم وغرائزهم وجشعهم الذي يزداد تورّما سنة إثر أخرى وحربا إثر غزوة حديثة، أما آن لك أن تلقي قلمك ويدك ولسانك في مزبلة ما، وتنضمّ إلى وليمة ما من ولائم هذا الخراب العظيم ؟

ألم تشف من عنادك بعد؟

....

حسنا، أيقنت الآن أن لا دواء لك غير الموت، ولقد دنا منك أيها المعتوه، ... تفووه.

مشاكلي مع المرأة.....

والـلـه العظيم أحبّ المرأة، أجلّها وأبجّلها وأحترمهـا وأعتبرهـا لـيس نـدّا لي فقـط، بـل وفي استطاعتها تجاوزي في جميع مجالات الحياة، والتفوّق عليّ وعلى سلالتي في العلم والفـنّ والمعرفـة والموهبة، لأقسم بكلّ عزيز لديّ، بدءا مـن أسرتي الـصغيرة ومـرورا بقـصيدتي القادمـة ووصـولا إلى أموالي المركونة في أدراج إدارات عديدة (فأنا الغنيّ وأموالي المواعيد) إنّي أكـنّ للمـرأة حبّـا خالـصا من كلّ منافع الدنيا والآخرة، وإنّي لمن حلفائها الأشدّاء ضدّ كلّ من يعملون على تدجينها وتشييئها ويلتذّون بإهانتها وتحقيريهـا، فهـي أمّـي المناضـلة وأختـي الرؤوفـة وزوجتـي الحبيبـة وصـديقتي المشاكسة وهذا حديث يطول....

مع ذلك لاتخلو علاقتي بالمرأة مـن "مـشاكل" تـسبّبت فيهـا بعـض المتحـيّلات المخادعـات للأسف الشديد، وسأكتفي بسرد بعض "المخالفات" والأخطاء التي قمن بهـا في المجـال الأدبي الـذي أنتمي إليه منذ ربع قرن

ــ إحداهنّ تهاجم بضرواة كلّ من ينظر إليها كجسد جميل، أو يكتب نصّا يتغزّل خلاله بـأنثى يحبّها واصفا لمفاتنها وسحرها وبهائها، ولست ألومها عـلى موقفهـا مـن المتعـاملين مـع المـرأة في الأرض والنصّ كجسد يوفّر اللذّة والمكتفين بذلك، فلا يرون في ذاتها غير ما يراه الأعمى من الليل، لكنّني أصاب بالذهول وأسقط في حيرة عميقة كلّما قـرأت لهـذه المدافعـة العنيـدة نـصوصها الإبداعيـة، فهـي أيـضا تقدّم نفسها في الشعر والنـثر كبـضاعة مغريـة ووليمـة باذخـة ومـصدر للإثـارة، ولا يخلـو سـطر مـن

كتاباتها من الإيماء والتلميح إلى فتنتها الجسدية من الرأس إلى القدمين، فمن ظلّ في جمجمته بقايا عقل، أستحلفه بجميع مقدّساته أن يشرح لي هذه المسألة المستعصية على الفهم والإدراك، فصديقتنا تقف في وجه من لايرى منها سوى سحر وجهها وتناسق قوامها، وتحشو كلّ قصائدها وخواطرها الإبداعية بفواكهها وثمارها وبالشموع والوسائد...، دون أن تسهو عن التثنّي بين السطور ورشّ المتلقّي بالعطور..... وهذا هو العجب العجاب.

ـ إحدى زميلاتي المحترمات لا تفوّت فرصة لتحقير سلالة الذكور من قطعان الكهوف إلى مجتمع الشبكة العنكبوتية، تلعن وتشتم وتختار النعوت والأوصاف المذلّة بعناية فائقة، فلم تعد مكتفية بالدفاع عن حقوق المرأة في العيش بندّية إلى جانب الرجل، وفي ضرورة صون كرامتها وترسيخ حضورها في جميع مجالات الحياة، بدءا من حقّها في التنفّس إلى حقّها في الذهاب إلى القمر والكواكب المعروفة والمجهولة، أنا على وعي مرّ بفظاعة ما قام به صديقي الرجل من جرائم وانتهاكات في حقّ بلايين النساء في الكهوف والخيام والبيوت والقصور على مدى آلاف السنين، ولكنّني أرفض أن نبدّل جبّارا بجبّارة، أرفض أن تأخذ الضحيّة دور الجلاّد، وأن تردّ زميلتي الرقيقة المهذّبة على تاريخ التطرّف بتطرّف حديث يختزل البدائية والوحشية والعنف الذكوري والأنثوي والحيواني عموما، أعتقد أنّ دور المرأة الكاتبة اليوم أن تنكّل بالرجل، ليس بالسبّ والقذف والتشويه، بل بدفعه إلى الندم على دهور طويلة، حرم خلالها نفسه والدنيا من طاقاتها العديدة ومن عاطفتها الرائعة المدهشة ومن قدراتها الفكرية ومواهبها الكثيرة، لذا وجبت الإشارة إلى هذا الخطأ الفادح الذي وقعت فيه زميلتي والعشرات من الأديبات العربيات.. .، كنّ أجمل

وأرحب من الرجل، هذا هو التحدّي المطروح عليكنّ وليس العنف الفكري واللغوي واللفظي، فخبرة الرجل في مجال العنف بأشكاله المختلفة، تخوّل له إفحامكنّ، وكم أخشى عليكنّ من غلبة الرجال.

ـ النموذج الثالث، فكّرت طويلا قبل أن أعرّيه، فقد يسيء إلى العديد والعديد من الأخوات الفاضلات المبدعات في تونس والوطن العربيّ، وهنّ بريئات من كلّ ما سأذكره، ولكن مسؤوليتي الأدبية تفرض عليّ الإشارة إلى البعض ممّن يكتبن بأحمر الشفاه، والحقّ يقال أحيانا، وينافسنني أنا شخصيّا محمد الهادي الجزيري، بأدوات من خارج ورشة الكتابة والمعرفة والموهبة، وهذا ظلم عظيم وجور ما أنزل الله به من سلطان، فللمتسلّلات إلى حرم الإبداع والفكر من كواليس ودهاليز وسراديب موحلة، أقول: ليس هكذا تكون المنافسة الإبداعية، ومن المخجل والمخزي أن تشوّهن مسيرة المرأة العربية المبدعة، وهي في بدايتها نسبيّا، بمثل هذه التصرّفات اللا أخلاقية والكافرة " بالروح الرياضية "، أيتها المرأة، يا أختي وحبيبتي ومنافستي أيضا، انتصري عليّ بإبداعك وجهدك المعرفيّ ولا تلعبي تحت الطاولة رجاء.

هذه بعض " مشاكلي " مع المرأة، ولايسعني في نهاية هذا البوح الخالي من كلّ نيّة سيّئة إلاّ أن أصافح العشرات من صديقاتي المبدعات المنتشرات في وطني العربي، جواهر تضيء دروب التائهين وتشير إلى كلّ شيء جميل وخيّر وراق، مع المعذرة إن كنت تسبّبت لهنّ في بعض الإحراج حين أشرت إلى بعض المتحيّلات، ولكنّي أعتقد أنّ الإحراج لي ولهنّ ولكلّ الكتّاب والكاتبات، للرجل والمرأة وللإنسان في المطلق، فمثل هذه النماذج التي ذكرت، تسيء إلى الجميع دون استثناء، ومع ذلك كان لابدّ من الضغط على الجرح لكي نذكره ونعمل معا على مداواته.

عن الحمامة والموت والحياة

في عصر يوم 19 أكتوبر الفارط، هوى علىّ خبر وفاة والدتي، وأنا في مدينة سرت، رفقة بعض الأصدقاء من الأدباء التونسيين والليبيين والعرب المشاركين في فعاليات مؤتمر الكتاب والأدباء العرب، لم يكن قد انقضى على وصولي إلى مدينة سرت سوى اثني عشرة ساعة، وقد شاء القدر أن أتجرّع مرارة فقدانها وأنا بعيد عنها مئات الكيلومترات، لقد طال بحمامتي مرض فقدان الذاكرة، كما تهافتت عليها طوال حياتها شتّى العلل والأحزان، ولم تخضع..ل م تستسلم، قاومت ببسالة جيش مؤمن، الأيام والأمراض والحظّ البائس، وقادت أطفالها الستّة إلى برّ الأمان (أنا بصدد كتابة قصيدة عنها.. .وإن كانت أمّي فوق الشعر والنثر.. رحمها الله)

لست أستنفر دموعي بكتابة هذا النصّ، بل أردت أن أشدّ على أيدي من حالفوني في تلك اللحظة الرهيبة وخلال عودتي الموحشة إلى حمامتي المسجّاة، ..ألف شكر لكلّ أعضاء الهيئة المشرفة على تنظيم وتسيير المؤتمر، ففي لمح البصر تمّ تخصيص سيارة لنقلي على جناح السرعة إلى مطار طرابلس، ولم يبخلوا عليّ بعطف أخويّ فيّاض ساعدني على قطع المسافة الفاصلة بين سرت وطرابلس، لم يكفّ هاتفي عن استقبال أصوات الأصدقاء في ليبيا وتونس، لم أكن وحدي في ظلّ ذلك السائق الطيّب، ذاك الذي حقّق معجزة حقيقيّة بإيصالي إلى المطار ولولاه لما التحقت بالطائرة، ذاك الذي لم يعد إلى أهله وأطفاله فور قيامه بمهمّته على أحسن وجه، وقد طلبت منه ذلك، بل التحق بي في متاهة المطار وظلّ يحفّزني على التماسك والتشبّث بالأمل.، فقد أُغلق مكتب تسجيل المسافرين ولم يبق عن موعد إقلاع

الطائرة غير خمس دقائق..، ألف شكر له ولكلّ أمّ عربية أرضعت أطفالها الأخلاق العظيمة التي تميّزت بها هذه الأمّة في عصورها الزاهية.

سأنهي هذي النبرة الحزينة، وأطلب من كلّ أصدقائي وخلاّني وكلّ من قرأ بعضا من مدوّنتي، أو سيطّلع يوما ما على بعض ما كتبت، أطلب التالي:

ـ ليكن يوم رحيلي طافحا بالبسمة والشعر وعناق الإنسان لأخيه

ـ أريد أن ترتدي الصبايا أبسط ما لديهنّ من أثواب وأن يتركن في قلوب المعزّين والمشيّعين لهيب العشق وشعلة الهيام، وأن تبتسم كلّ قاتلة منهنّ وتوشوش أختها أو رفيقتها بذاك الحياء الأنثويّ المدهش، ذاك الخجل الجميل الذي أصبح نادرا في هذا العصر الموحل، ذاك الضوء الشفيف الذي قادني مرارا إلى أبهى القصائد والنصوص

ـ أريد من الذكور أعدائي الطيّبين أن يتلو آيات من القرآن ومقاطع من ملحمة كلكامش، ونشيد الأنشاد وما حفظوه للمتنبّي ولوركا وطاغور والحلاّج وغيرهم ممّن علّموني السحر وطهّروني من حيوانية الذئب الكامن في الإنسان، وأريد من ندماني أن يذكروا حماقاتي الصغيرة والكبيرة وأن يصدحوا بما تيسّر لهم من ملحمتي الشعرية " أرتميدا " وأن يعترفوا أنّهم ارتاحوا من منافس عنيد في مراودة القصيدة وإغواء الحياة، كما ألتمس منهم ألاّ يتركوا مكاني شاغرا حين يجتمعون في ركني القصيّ المحبّذ إلى نفسي.

أريد أشياء كثيرة، سأدوّنها يوما ما، إن أمهلني الموت، ولم يسلخني عن قلمي وأوراقي وكتبي وفوضاي الحبيبة، فيا كم تشغلني الحياة عن الموت وتفاصيله، وخلاصة ما سأوصي به، أنّني أحببت الحياة وافتككتها افتكاكا فلم أؤمن لحظة واحدة أنّها هديّة، وأخلصت للإنسان قدر الإمكان، ودعوته طيلة حياتي وسأدعوه ما حييت إلى حبّ الناس والدفاع عن قيم الحبّ والخير والجمال والحرية، وحرّضته على القناعة مع الطموح الدائم للأحسن والأمثل وأخذ الحياة كما هي، والتوغّل في أحراشها دون حذر شديد وحسابات هائلة، تثقل السير والحركة والفعل، وتعيق كلّ إضافة جميلة ممكنة، لذا أطلب بكلّ لطف أن يكون يوم موتي خالصا للاحتفاء بالحياة، للفرح والأكل والشرب والعناق، ومحرّما على البكاء والنواح والسواد، سنموت يا أخي الإنسان، وهذا ليس من باب ذكر الكوارث المتربّصة بنا، بل من باب التذكير أنّ الموت جزء من الحياة، فمرحبا به في حفلة أفولي

للتذكير... فقط

أفلا يسرُّكَ أن تكون ضحيَّتي فتحُلَّ في لحمي وفي أعصابي

وتكون عزماً في دمي، وتوهَّجاً في ناظريَّ، وحدَّةً في نابي

وتذوبَ في رُوحِي التي لا تنتهي وتصيرَ بَعَض ألوهتي وشبابي..؟

إنـي أردتُ لك الخلودَ، مؤلَّهاً في روحيَ الباقي على الأحقابِ

هذا بعض ما قاله الثعبان للعصفور في طيّات قصيدة أبي القاسم الشابي "فلسفة الثعبان المقدّس"، هذه القصيدة التي اعتبرُها أهمّ ما أبدعه الشاعر إذ تمثّل لحظة وعي فارقة في فكره الرومنطيقي ونظرته البريئة نسبيّا إلى العالم، لست بصدد الخوض في تجربة أبي القاسم الشابي بل اتّخذت قصيدته عتبة للكتابة عن الصراع المحموم الدائر هذه الأيام بين مختلف الفصائل الحزبية والايدولوجية في أكثر من قطر عربي، خلقت فيه الثورة مناخا جديدا يحرّض الجميع على إعادة التموقع وافتكاك نصيب من السلطة والهيمنة والحضور.

أعتقد أنّه من حقّ كلّ فصيل أو فرقة أو حزب بل حتّى الفرد الواحد أن يبحث له عن مكان تحت الشمس وأن يطالب بقسط من الأفق، لكن أرجو أن لا يغيب عنّا جميعا أنّ الحضور والتواجد في الساحة السياسية والثقافية وغيرهما لا يمكن أن يكونا بإلغاء الآخر فما يستطيعه ثعبان الشابي من المحال أن يقدر عليه أيّ طرف من الأطراف المشاركة في لعبة الانحسار والامتداد، إذ أنّ المنافسة (وللتذكير

فقط) لا تقع بين كائنات ماديّة حسب ما يبدو لبعض قصيري النظر، بل بين جملة من الأفكار المتضاربة، وليس في الإمكان قتل الأفكار أو محوها أو إتلافها وهذه حقيقة تاريخية أبديّة، قد نلقي بخصومنا في غياهب السجون أو نغتالهم ببساطة عربيّة فريدة، ونشرب أنخاب النصر والقضاء على " المفسدين " أو " الرجعيين "، كلّ حسب خلفيّته الايدلوجية، لكنّ الفكر الذي خلنا أنّنا دفناه معهم، سينبت مرّة أخرى مثل عشبة تشقّ الصخر أو تطلّ على " سعادة النظام الجديد " من اسمنت الأرصفة الآمنة المبايعة للسادة الجدد، لقد أثبت تاريخنا " المشرّف جدّا " أنّ الفكرة لا تصحب حاملها إلى أقبية السجون أو غربة المنافي ولا يعتريها ما يعتري جثّة صاحبها المقتول من قبل أخيه في الوطن.

ما لم يدركه البعض منّا إلى حدّ الساعة أنّ الإنسان غادر الغابة منذ دهور واتّخذ شكل فكرة ولم يعد بالتالي طريدة لأخيه الذئب ولا متاحا للابتلاع والانقراض، فالفكر لا ينقرض أبدا ولا سبيل للانتصار على الآخر سوى بالعلم والثقافة والحجّة الدامغة، ومع ذلك يظلّ انتصارا ظرفيّا حسب قدرة كلّ طرف على التأقلم مع متغيرات العالم وحسب قدرته كذلك على مجاراة جموح الإنسان في اتّجاه الحريّة والعدل والكرامة، أمّا الحالمون بالخلود على رأس أي مجتمع إنساني فأقول لهم: "لو دامت لغيرك ما وصلت إليك "... تلك سنّة الحياة والصراع مستمر ولكن رجاء لا تتواثبوا على بعضكم البعض... لا تحنّوا إلى العضّ والرفس والنطح والركل فالغابة القديمة أمست جمهوريات ومجتمعات مدنيّة حسب ما يشاع والله أعلم.

خلاصة القول:

سأموت حتما ذات صيفْ

لكن عليّ الآن أن أنسى الحريق

وأن أعبّ الغيث كالمزراب

ابتلي تماما يا ثيابي

لا عليك ولا عليّ

فثمّة امرأة تبارك قصتي في صحن منزلها

وتضحك كالمطر

لا بّد أن أبتّل من جلدي إلى قلبي

ومن شفتي إلى لغتي

لأبعث من جديدْ

فعليّ أن أحيا لأكتب

من سيجمع دمع أمّي للشهادة ضّد أهلي ؟

من سيبذر دمعه في كلّ جرح ؟

من سيعوي

من سيغوي

من سيرعب

إن أنا بايعت موتي

من سيكتب ؟

أدعية مكشوفة

كتبت منذ أيام قليلة على صفحتي بالموقع الاجتماعي "الفيسبوك" ما يلي:

"كلّ من يتعمّد تدمير اقتصاد البلاد نكاية في خصمه السياسي... أقلّ ما يقال فيه أنّه معتوه..، لكنّ الإشارة إلى الأخطار ومعارضة السياسات الخاطئة واجب مقدّس"، وها إنّني في باطن هذا الليل الممطر، أشعر بقلّة حيلتي وهوان نداءاتي على الناس، وعجز اللغة وهي سلاحي الوحيد، عن إقناع الفرقاء من علية القوم والغوغاء، بضرورة وضع حدّ للفوضى المستشرية في جلّ مجالات حياتنا الاجتماعية وقطاعاتنا الاقتصاديّة وخاصة في حلباتنا السياسية، حتّى لا تحيد هذه الثورات عن مسارها، وأمام عجزي المبين، لم يبق لي غير الدعاء ورجاء الاستجابة:

ـ اللهمّ حوّل المزايدين وأنت تعرفهم، إلى أرضية قاعة أفراح شاسعة وعظيمة، ولتكن القاعة مكتظّة بالراقصين المنتعلين لأحذية سميكة، ولتعزف الموسيقى الصاخبة ذات الإيقاعات السريعة دون توقّف حتّى يستمتع إخوتنا المزايدون بأجواء الحفل ويتوبوا عن الادّعاء.

ـ اللهم إنّ أحد زملائي متسيّس جدّا، ومتجهّم أبدا، فسلّط عليه أشعّة الشمس ونور القمر وحتّى شعلة البرق، لعلّه يبتسم في وجه الحياة ويعفينا من رؤية سحنته المكفهرّة على مدار الساعة.

ـ يا ربّ أمسى لدينا ملايين الرؤساء وما لا يحصى من القادة والزعماء، فعطّل "الفيسبوك" سبعة أيام في الأسبوع، ليلتفت الخلق إلى عبادتك وإلى تسيير أعمالهم

وتربية أطفالهم، فمن كان منهم أعزب، فليخطب إحدى جاراته أو زميلاته أو بنات عمّاتـه أو... مـا شـأني؟، وليخطـب في وجههـا صباحا مـساء وفي الهزيـع الأخـير مـن الليـل ويعـرض عليهـا بياناتـه وهلوساته، ومن كانت عزباء وعاطلة عن العمل والحياة، فألهمهـا يـا إلاهـي الرأفـة بنـا، وتحويـل وجهة طاقتها من نشر الأخبار الكاذبة والفتن الجاهزة إلى البحـث عـن الأعـزب الـذي ذكرتـه منـذ قليل.

ـ الـلـهم ثمّة موسيقى جديدة تُدعى "الراب" تكتسح آذاننا المتصدّعة أصلا، وبما أنّنـي مـن المؤمنين المتعصّبين لحقّ الاختلاف، أترجّاك أن تهدي هؤلاء الشبّان المتحمّسين إلى الشعراء المنـزوين في أركان الفوضى، ليقطفوا منهم نصوصا جيّدة أو "معقولة" وذلك أضعف الإيمان، فلكم تعبنـا مـن هذا " الهذر الفنّي " المتفشّي فينا باسم الثورة.

ـ مولاي إنّ طقسين متضادّين يهيمنان اليوم على بلـدانا: بـرد شرس ووقـح يقـتحم بيـوت الفقراء وهم الأغلبية الساحقة، وحرارة مسعورة تحرق كلّ وفاق بين الأحزاب، وكـلّ مـا أرجـوه أن يميل الطقسان إلى الاعتدال، أمّا حمّى روحي وبرود حبيبتي فتلـك مـسألة أخـرى، تـدخل في خانـة حزني الأبديّ.

آخر القول :

" لم أزل عند وعدي

غدا أختلي بإلاهي

وأشفع فيكم جميعا بلا تفرقهْ

سيصرّ على خنق قوم اليمين

وإحراق ناس اليسارْ

سأخرّ له ضارعا :

يا إلاه الجمالْ

هؤلاء الملاعين شعبي

فدمدم على غيرهم

ودثّر بلادي بريش الحمامْ"

في التجذّر والانفتاح

بما أنّي قوميّ أؤمن بحقّ هذه الأمّة في الحياة وبقدرتها على تقديم الإضافة للإنسانية في جميع المجالات، العلمية منها والفكرية والإبداعية وخاصة خاصة الروحية والمعنوية، ارتأيت اليوم أن أطرح مسألة أرّقتني طويلا وما تزال، وهي ماهية القومية العربية، وهل في اعتزازنا بأنفسنا دعوة ضمنية لإلغاء الآخر، أعتقد أنّ الأمر التبسَ على عديد المثقفين والمبدعين القوميين الذين سقطوا في فخّ الشوفنية وردّوا على الغزاة الجدد المبشّرين بالكراهية والعنف، ردّوا عليهم بخطاب عاطفي تطغى عليه نبرة طفولية: " نحن الأصل والخير والنور والحبّ والمجد الخالد وأنتم الفرس ذوُو الوجوه الصفراء والروم العلوج"، وللتوضيح هؤلاء يقصدون بالفرس الدولة الإيرانية الحديثة وبالروم الغرب الذي رغم جرائمه وفظائعه الكثيرة، فتح للإنسانية عديد النوافذ على المعرفة والعلم وساهم مثل الأمم الأخرى في هذا الرقيّ الحضاري الذي نشهده اليوم ونعيشه وننتفع بثماره في جميع مجالات الحياة.

يعلم العديد من أصدقائي المحلّقين داخل غيمتي، أنّني أميل إلى التكثيف، لذلك أقشّر فكرتي وأمرّ إلى لبّها مباشرة: القومية بالنسبة لي هي أن أنفتح على العالم رغم بشاعته وفي يدي وردة، وفي الصدر تراث هذه الأمّة العظيمة، وتعني لي أيضا أن أكون أكثر رحابة صدر من متخلّف عنصريّ يحاول أن يستفزّني بالسخرية من مقدّساتي، ثمّ إنّي لست مهزوزا إلى هذا الحدّ رغم سريالية المشهد العالمي ودموية الغابة الحديثة، حتّى أدّعي أنّني أنتمي إلى جماعة إنسانية نورانية مثالية كاملة الصفات، وأنّ الآخرين جميعهم، مكانهم اللائق بهم هو سلّة المهملات، هذه ردّة فعل أتفهّمها

في ظلّ الحملات المتتالية التي تتعرض لها الأمة العربيـة، ولكننـي لا أتبنّاهـا لأسـباب عديـدة، مـن ضمنها أنّ أمما كثيرة عانت وما تزال من جور وبطش واستغلال الإمبرالية الغربية ومنها مـن تقـف إلى جانب قضيّتنا الجرح فلسطين

ومن الأسباب الكثيرة الأخرى التي تمنعني من تبنّي هذه الأفكار الغريبة عن فكرنـا العـربي الإسلامي الأصيل، اعتقادي الراسخ أنّ المعركة اليوم ليست صراع شعوب لبعضها الـبعض، بـل صراع الشعوب قاطبة لرأس مال متوحّش، يتوغّل سنة إثر أخرى في الأرض ويزداد تلهّفا على افتكـاك كـلّ شيء، حتّى الفتات من المواطن العالمي وليس من الإنسان العربي فقـط، رغـم أنّ هـذا الأخـير نـال النصيب الأوفر من الإذلال والتجويع والقتل والتهميش.

ختاما أعتبر القومية العربية بمثابة أسرتي التي أحميها بكـلّ مـا أسـتطيع مـن قـوّة ورفـض وشجن، وأصدُّ عنها الجهل والفقر وغير ذلك من الآفات، لكنني لا أفتح نافذتي وأصيح:

" أسرتي أبهى الأسر في هذا الحيّ الموبوء "، بل أشرّع باب بيتي وألقي التحيّة على الجميـع بدءا بالغرباء، ليست تحية ذليل، بل سلام إنسان واثق من نفسه وأهله، ومؤمن بوجود بذرة الخير والحبّ في الآخرين، لكنّ الأهمّ من كلّ ما ذكرت أنّ العالم يقرأ في عينيّ المبتسمتين هـذه الجملـة الهادئة :

" ويل لكلّ من يفكّر في إيذاء أهلي، ولا عفـو ولا سـلام لمـن يـذبّحون أطفـالي في فلـسطين والعراق وسوريا، لا عفو ولا سلام لمن حوّلوا وجهة هذه الانتفاضة الـشعبية العظيمـة إلى الفـوضى والاقتتال الأهليّ "

خلاصة القول :

" بعد طول فراقْ

ضمّها وبكى

فتداعت له

غير أنّ الفتى ظلّ يبكي

ويهذي: العراق العراقْ "

"دِهشو خلاص يا راجل"

وما تيسّر من دعاء

ككلّ مسؤول عن رعيّته، وبصفتي مواطنا واعيا بمهامي الجسيمة، بدءا بمطاردة الرغيف الجبان، وانتهاء بتفقّد الأمّة الهائجة المائجة، لا أوفّت فرصة للسؤال عن أحوالها التي تتميّز بالعجائبية دون سائر الأمم، استغللت مشاركة نخبة من الأدباء الليبيين في معرض تونس الدولي للكتاب وكان على رأس الوفد الأستاذ ادريس المسماري ومن ضمن المكوّنين له الأدبيتان رزان المغربي وعائشة المغربي والشاعر خالد درويش، لأسأل عن حال المتنافسين في فنون التجريح والقذف والشتيمة في ليبيا الشقيقة على غرار ما يحدث في تونس، فجاءني الردّ من خالد درويش مكثّفا وجليّا، وبلهجة ليبية حاسمة: " دِهشو خلاص يا راجل "، فقلت له وهذا ما يحدث عندنا تماما، فقد خفت النباح وتراجعت نسبة العض، بل إنّ عناق خصمين شرسين في وضح النهار لم يعد يثير استغراب أحد، ويبدو أنّنا سنشهد قريبا مصاهرات عديدة بين الإخوة الأعداء. ابتسم صديقي الليبي ونصحني بالدعاء قبل أن يغيب في زحام الكتب والمولعين بها حسب ما يبدو والله أعلم، وها إنّي الليلة أعمل بنصيحته كمسؤول خفيّ وراع افتراضي مواظب على أداء واجباتي التاريخية، فلتشرع لحبالي الصوتية أبواب السماء: مولاي ليس بالشعارات ولا المهاترات يحيا الإنسان مولاي لقد تعب البشر والشجر والحجر وملّ الشيء ذاته ربّاه لقد تهافتت الأحزان علينا من كلّ جانب " وقلّ المساعد " كما تنهّد المتنبي من ألف عام يا ربّ لم يسلم أحد من التشكيك في وطنيته ومصداقيّته وعفّته ولم يخجل أحد من تسلّق جثامين الشهداء

للجلوس على الشعب، يا خالق كلّ شيء، الكلّ يتّهم الكلّ، والعرب جميعا يدّعون النقاء قبل الثورة وبعدها وهذا ما حاولت تصديقه خمسين عاما دون أن أوفّق في مسعاي اللـهم اقطع لسان كلّ دعيّ نمّام وانشر غسيله في كلّ مفترق طرق اللـهم إنّ اليسار غبيّ وطوباويّ فلا تعف عنه، واليمين جشع ينوي تحريم كلّ أفعال الحياة حتّى التململ والبكاء فحرّم على شيوخه الجنّة اللـهم إنّ جاري الأميّ أضحى أمير جماعة وصديقي المقاول الأدبي احتلّ كلّ زحام وعلا صهيله في كلّ مأتم، كأنّ روح تشي غيفارا حلّت به، فاضرب الجاهل بالتاجر يا ربّ العالمين وأخرجنا منها سالمين يا ربّ لقد كثر الشرفاء وقلّ الشرف فاحشرنا مع الصامتين يا ربّ أنت أدرى بما يعتمل في غياهب هذه الأوطان فجد لنا مخرجا قبل فوات الأوان يا ربّ يا خالق العرب أسعفني بالجنون...

آمين

آخر القول:

جسدي وطني ودمي علمي

تارة أرجم الغرباء بصوتي

وطورا أبول على حائط سيزول

متعب بعروبتي

" أنا ياصديقة متعب بعروبتي "، هذا ما زفره نزار قباني سنة 1989 بتونس في إحدى قصائده التاريخيّة، فماذا سيقول اليوم لو يُبعث حيّا؟، ماذا سيكتب على بياض أوراقه، وهو يعاين أمّة تثور في وجه الطغيان وتسلّم مستقبلها لأتباع الخرافة والظلام؟، لأناس لا يفقهون مطلقا معنى الاختلاف والتعايش مع الآخرين، بل إنّهم لا يدركون أنّ على هذه الأرض آخرين غيرهم، حزني شديد وغير خاف على أحد، حتّى طفلي الأصغر أمسى يحاول تسليتي ومداعبتي وافتكاك البسمة من سحنتي المكفهرة، ما الذي يحدث لنا وماذا يراد بنا ؟، هل قدرنا التحرّر من قبضة الاستبداد "المدني" للسقوط بين براثن القهر المتحدّث باسم الله؟، يا الله يا خالق العالم الواسع المتعدّد، إنّ من خلقك من ينظرون إلينا كسبي وغنيمة حرب، يريدون أن يعودوا بنا إلى العصر الحجري، وينكرون أنّ الإسلام دين معرفة وتواصل مع الجهات جميعها، لكأنّهم موتى قادرون على التنفس والمشي في الأسواق. لقد قلت سابقا وأعيد: شخصيّا بي من رحابة الصدر ما يخوّل لي قبول جميع أضدادي والتعايش معهم، ولكن ماذا تفعل مجتمعاتنا المدنيّة مع فئة تخوّن وتكفّر كلّ من يخالفها الرأي، إنّ ما نشهده في مصر وليبيا وتونس من حملات عارمة لشيطنة المعارضين للتطرّف والغلوّ، يثير فينا الخوف على مستقبل أبنائنا وبناتنا خاصة، فالنظرة الدونية للمرأة تستفحل يوما بعد يوم ونخشى أن تقام أسواق النخاسة في قادم الأيام وتُعرض النساء للبيع في المزاد العلني، فمن متحدّث عن ختان البنات، إلى متشدّق بأنّ الفساد المهيمن على العالم سببه خروج المرأة من بيتها، ما هذا ؟ وهل يعتقد هؤلاء الناطقون

الرسميون باسم السماء أنّ المجتمع العربي سيرضخ لمثل هذه الترهات ؟، هيهات يا جماعة فقد قضي الأمر وأمسى العالم حجرة صغيرة مكتظّة بالعلم والمعرفة ووسائل التواصل الإنساني، ويسرّني أن أذكّركم بما قلته سابقا: لقد وصلتم متأخّرين وفاتكم قطار الحضارة. رغم غضبي الجليّ مثل مطالب الثورة العربية، أدعوكم كشركاء في الوطن الواحد أن تعودوا إلى رشدكم وترفقوا بأنفسكم وبالشعب العربي المغبون الذي تجرّع الجور وعانى الكبت لعقود طويلة، وأوشوشكم أنّ الإنسان العربي اليوم غير مستعدّ تماما لقبول دكتاتورية جديدة وتحت أيّ مسمّى، هذه نفوس خرجت بالملايين لتقول لا للطغيان، وقدّمت أبناءها وأحبّ الناس إليها شهداء من أجل الانعتاق والعيش بحرية وكرامة، فحذار من الوقوف في طريقها نحو ما تصبو إليه، حذار إنّ الغضب يحتدّ... اللهم قد بلّغت

آخر القول:

بيان الشعراء

أحرجنا السلطةَ لمّا أغوينا الدولةْ

فطُردنا من حضن الجمهوريّةْ

وفتحنا أقفاصا شتّى

لتطير الكلمات... إلى أقصى أدغال المعنى

فتوعّدنا بعضُ المارّةِ بالنار العلويّةْ

وطوال الرحلةِ

لم نسلم من كذب الناسِ وبطش ملوك الناسِ

تعبنا... لكنّا لن نعبدَ غيرك يا حريّةْ

مقارنة بين

"الطيّبين" و"الملاعين"

هم يستبطنون رغبة رهيبة في تدجين كلّ شيء حيّ وميّت، يهدفون إلى برمجة حركاتنا وسكناتنا، يتمنّون تحديد طريقة نومنا ونهوضنا وأكلنا وشربنا وسيرنا.. إلى آخر المهزلة، ونحن نرغب في تحريرهم من عنفهم ووهمهم فكلّ شيء ممكن في عالم اليوم إلاّ خلق مجتمع نمطيّ يشيّء الناس ويحوّلهم إلى علب لخزن الأوامر والنواهي

هُم لا يفرّقون بين الحبّ والجنس والإنجاب، يجمعون أفعال الإنسان ومشاعره في سلّة الجماع، ونحن نكتفي في أحايين كثيرة بابتسامة المحبوب وسلامته من كلّ أذى

هم يلخّصون الإنسان في آلة جنسيّة مسعورة، ونحن نكاد نزهد في الجنس والأكل والشرب والحياة، بفضل الفتاوى المختصّة في إهانة الجسد الإنساني الجميل وإذلاله، يا ربّ هذا الكون البديع، إنّهم يحوّلون أبهى خلقك إلى بهائم، لا همّ لهم غير السقوط على " أنثى " ثمّ غلق باب الحياة دونها

هم ينظرون إلى المرأة بدونيّة مقرفة، ونحن ننزّهها من كلّ شرّ، ونضعها تاجا على الرأس وتميمة في القلب، المرأة أمّنا وأختنا وحبيبتنا وهي كذلك منافستنا المحترمة

هم طيّبون يريدون أسلمة المسلمين وغزو الكون وضواحيه ونحن ملاعين نطمح إلى تحقيق بعض السلام لهذا الكوكب الغارق في الدماء والدخان

هم يبيحون قتل الإنسان، أروع ما أبدع الله، ونحن نكاد نتعلّق بالغيوم مخافة أن ندوس نملة تسعى أو زهرة تتمايل من سكرها بشبابها

هم يعبدون اللـه طمعا في جواري الجنّة وغلمانها ونحـن نحـبّ اللــه لأنّنـا عبّـاد النـور ونشتاق لقاءه كما يحنّ عاشق لمعشوقه

هم يصهلون في الشوارع والأزقة المتربة: " الموت لأمريكا "، ونحن نبارك هذه الأمنية، ولكن بماذا وكيـف سـيحقّقون مـوت أعظـم وأشرس امبراطوريـة عرفتهـا البـشريّة؟، هـل ينـوون إبادتهـا بالزعيق وبالقمصان الأفغانية المعيقة للحركة... نحن نشدو في خشوع: (العلم حصن الشعوب) " يا أمّة ضحكت من جهلها الأمم "

هم ينظّرون لثقافة الموت ويربّون الزهور والحمام على الطاعة والقتل ونحن نبتسم للغـد كلّما أربكنا شبل أو فراشة بسؤال لم يخطر على بالنا، فمن لا يـسأل لا يحـرّك الـسواكن ومـن كـان كذلك، لا خير يُرجى منه فقد قنع بالسائد وبارك الراكد، وتلك معضلة هذه الأمّة من دهور

هم يزدادون ضيقا وانغلاقا عصرا إثر عصر ونحـن نـزداد اتّـساعا وانفتاحـا كتابـا إثـر آخـر وعلاقة إنسانية إثر أخرى، لقد دعانا من أبدعنا إلى فتح كلّ نوافـذ التعـارف عـلى مـن حولنـا مـن شعوب وقبائل وأمم، ولن نغفل عن دعـوة مقدسّـة، تنتـصر للبـشر واخـتلافهم وتعـدّدهم وتنـوّع ثقافاتهم ومشاربهم ورؤاهم

هم كاملون لا يخطئون أبدا، ونحن أطفال كبار نؤمن إيمان العجائز أنّ الإنسان هو الخطّاء الأكبر، وهو كذلك الشجاع الذي يعترف بكبواته وحماقاته، وقصوره عن الإدراك أحيانا

هم يؤمنون بامتلاك الحقيقة المطلقة، ونحن نـؤمن بحـقّ الإنـسان في الاخـتلاف، فـالتنوّع أساس الحضارة والعمران، ونطلق أسراب الحريّات في فضاء الخلق والإبداع والإضافة

هم منّا ونحن منهم وسنجد حلاً، لن نرضى بطغيان جديد تحت أيّ يافطة أو مسمّى، فمن العجب العجاب أن نغيّر طغاة بجبابرة، رغم أنّه (لا عجبْ / في بلاد العربْ)

آخر القول:

تعبتُ من ترميم هذا المنزل الخربْ

أخي يقصّ وردة العربْ

ينثرها في الريحْ

الدم في المجاري

والحزن عنقود غضبْ

تقتات منه الروحْ

تعبتُ لكنّ العناد صاحبي القديمْ

وها يدي تمتدّ رغم خوفها إلى الظلامْ

وتوقد الشموع في أركانهِ

لا شيء في مكانهِ

أخرجوا منّي..

دعوني لحبيبتي

من الواضح جدّا أنّ أوضاعكم في غاية السوء، تطاحن اجتماعي، احتقان سياسي، قتل مستشر في كلّ زاوية ومنعطف، جوع متقدّم بجسارة إلى أغلب البيوت، ميولات انفصاليّة لا يخلو منها بلد أو مدينة أو قرية، خلاصة التشخيص: حالتكم رهيبة وشبه ميؤوس منها، وأنا بصفتي أحد أبنائكم أجد نفسي منقادا إلى التعاطف معكم ومجبرا على الإصابة بكلّ أصناف الأمراض من فوران الدم إلى إهتراء الأعصاب ومرشّحا قويّا للجنون، كلّ هذه المصائب أحتسبها عند الله، أمّا أن تمنعني فوضاكم المأساويّة عن الكتابة لحبيبتي وعنها فذاك ما لا يمكنني قبوله إلى ما لانهاية.

أقسم بدمكم المتوهّج في عروقي وبشهدائكم الغاضبين منكم، أقسم بعشقي لهذه الأمّة العجيبة الغريبة إنّي متوجّع تماما ممّا يحدث لكم من التفجيرات اليومية في جسد العراق إلى اختطاف النساء في ليبيا إلى انتفاخ بطون المجاهدات التونسيات بعد عودتهنّ من أرض الشام، ولقد كرّست ما انقضى من حياتي للكتابة عن آلامكم وأحزانكم وطموحاتكم، لكنّي في عتبة الخمسين التفتّ إلى نصوصي فلا أجد فيها سوى ظلّ باهت لحبيبتي وسط ركام هائل من جثثكم ووديان من دمائكم وظلمات أساسها العتمة الكامنة في رؤوس طغاتكم، وقد آن لي أن أحتفي بحبيبتي قبل قدوم هادم اللذات، ولكي أكون متناغما أكثر مع صدق هذه اللحظة أوضّح أنّني أرغب في الاحتفاء بطيفها إذ أنّ حبيبتي سلخت يدها عن يدي منذ ثلاثين عاما، ومع ذلك مازلت قادرا على رسمها بالكلمات فأنا أراها بعين القلب وذاك حال العشاق مذ كان العشق.

المهمّ يا جماعتي وقطيعي أخرجوا منّي قليلا، دعوني لطيفها وللخال حارس خدّها، دعوني لظلّها في جحيم الظهيرة وعطرها آخر الليل، ماذا سيقول عنّي التاريخ إن أنا واصلت هذا الاختصاص البائس، المتمثّل ببساطة في تأريخ تقاتلكم وتهافتكم على دماء وأعراض بعضكم البعض؟، ثمّ إنّ الطبيعة أنتجت الآلاف من المولعين بفنّ الوشاية التاريخية ولا أعتقد أنّ التفاتي إلى حبيبتي قبل الموت بقليل، سيمنع فضائحكم من الوصول إلى أحفادكم الذين أراهم يستعدّون للتناحر وهم مجرّد مشاريع في أصلابكم، أنا واثق تمام الوثوق أنّ العالم لم يقدر على الاستمرار إلاّ من شغفه بمتابعة مسلسلكم المرعب المذهل الرهيب المستعصي عن كلّ وصف، فماذا بوسعي أنا الكهل المرهق المصاب بالبكم والذهول أن أضيف لإبداعكم الواقعي؟، كأكل أحدكم لقلب أحدكم مثلا، أو كتفجير شابّ عربيّ لذاته وسط مأتم على سبيل المثال، صراحة أعتقد أنّ كلّ الروائيين كتّاب الواقعية السحريّة من أمثال جورج أمادو أو قابريال قارسيا ماركيز وغيرهما، عليهم أن ينحنوا للواقع العربيّ وأن يعترفوا بتفوّق الكائن العربيّ في مجال كلّ ما هو غرائبي وعجائبي.

أجدّد التأكيد على حبّي لكم وانتمائي الجينيّ والاضطراري لكم وألتمس منكم أن تتركوني لحالي ولو من حين إلى آخر، بي رغبة جامحة في الكتابة عن فستان حبيبتي المتأرجح في حبل الغسيل، المغازل للشمس والريح ولعينيّ المحدّقتين فيه منذ الطفولة، ليتني حبل الغسيل والجدار الممسك بحبل الغسيل والبيت السحريّ المتخفّي خلف الجدار، وليتكم تكفّون عن التزاحم والتقافز والتناحر فيّ وحولي وعلى صفحات الجرائد وفي التلفاز وعبر موجات الأثير لأختلي تماما بزهرتي الأولى وأواجه بها سحنة الموت.

آخر القول:

لحبيبتي هذا النشيدُ

لها فقطْ

فإلى اللقاء إلى اللقاءِ

خذوا سلالتكم وغيبوا ساعة أو...

لا تعودوا

حاولوا يا أهل حزني

أن تضيعوا مرّة في الأبجديّة

حاولوا ألاّ تعودوا.

النطيحة والعرجاء

وما خلّف الجهل

بائع اللبن المغشوش، قاطع التذاكر العابس الطامع في مليمات يقتطعها من كلّ تذكرة، الزميلة العاطلة عن الثقافة والحياة، الجار المتخصّص في لعبة الورق وقتل الوقت، الأمّيّ مؤذنّ المسجد صاحب الصوت الرهيب، صانع الأعلام الوطنية المستكرش، سائق سيارة الأجرة المتخصّص في التحليل السياسي، هؤلاء وغيرهم من النطيحة والعرجاء وما خلّف الجهل يتحكّمون اليوم في مصير الآلاف من المتنوّرين والمثقفين العرب، بتعلّة أنّ الصندوق حسم الأمر بين الخصوم السياسيين والشعوب اختارت من يحكمها، وكلّ من يعترض على نتيجة الانتخابات هو ضدّ الديمقراطية والحريّة والشفافيّة ووووو

نعم أنا ضدّ الديمقراطيّة في مجتمعات تتفشّى بين جماهيرها الأميّة والغباء، فمن غير المعقول وليغضب من يشاء، من غير المعقول أن يحدّد الغوغاء وهم الأغلبية الساحقة مستقبل هذه الأوطان التي عانت طويلا ليس من الطغيان فقط، بل من الجهل والتخلّف الفكري والتصحّر الثقافي، فما الذي حدث بالضبط؟، أزلنا ظاهر الجبروت والاستبداد ومررنا مباشرة إلى " صندوق عجبْ " ليحكم بيننا وهذا هو الحبّ القاسي الذي أومأ إليه محمود درويش في سياق آخر، الحبّ القاسي أن يكون الدليل أعمى بحجّة أنّه ابن الوطن، ومن شكّك أصلا في وطنيّته أو ناقش حقّه في الحياة بكرامة في ربوع وطنه؟، لا أحد يجرؤ على ذلك، لكن من حقّ المثقّف المستنير أن يحتجّ على هذا الشكل الباذخ من الظلم الاجتماعي، فالإرهاب ليس حمل السلاح

وبطش الدولة فقط، بل يمكن للنزهاء فقط، أن يدرجوا حكم الغوغاء للنخبة في خانة الإرهاب المتّفق عليه استنادا إلى الديمقراطيّة العظيمة التي تعدّ آخر ما تفتّق عنه العقل الإنساني كحلّ لتنفيس الاحتقان الاجتماعي ولكنّ المنظّرين القدامى منهم والمعاصرين، غفلوا عن الشرط الأساسي لنجاح نظريتهم، ألا وهو شرط التكافؤ الثقافي والعلمي بين شرائح المجتمع ولو نسبيّا، ففي كلّ مجتمع إنساني تفاوت معرفي بين مختلف الطبقات والشرائح، وهذا ما نعاينه حتّى في أكثر الدول تقدّما وازدهارا لكنّ الأمر لم يصل بالمجتمعات المتطوّرة إلى هذا الحدّ السريالي الذي نعيشه نحن العرب، ولنضرب على ذلك مثلا:

الكهل الخمسيني صاحب المخبزة الكائنة بمدينة ميونيخ، يعشق الموسيقى ويطالع مجلاّت وكتبا ويخطّط للقيام بجولة استكشافيّة للعالم ببلوغه السبعين سنة، والآن لنقارن هذا المواطن الألماني بكهل عربي له مخبزة كذلك لكنّه لا يرغب في معرفة شيء خارج نطاق الفرن والربح والستر، أمّا أهمّ مشاريعه المستقبليّة فهو أن يسلم من بطش السلطة مهما كان اسمها أو شكلها أو لونها وأن يسطو يوما ما على أرض جاره ليوسّع المخبزة فيقتنع ابنه بلا جدوى الدراسة ويكون خير وريث له ولأطماعه وهكذا دواليك، خلاصة الأمر: نحن قوم نعتقد امتلاك الحقيقة المطلقة لذا نكره العلم والثقافة، ولذا استفحلت فينا الأميّة والتخلّف منذ قرون ولا أرى شخصيا مخرجا لهذه الأمّة إلاّ في ثورة ثقافيّة عنيفة تجبر الناس على التعلّم والكدّ المعرفي والتزوّد بالعلم، هذا رأيي صراحة دون حذلقة لفظيّة ولا مواربة، خاصة في ظلّ ما نشهده من نتائج كارثية للانتخابات في أكثر من قطر عربيّ، تعالوا نثقّف النطيحة والعرجاء وما خلّف الجهل ثمّ حدّثوني عن نعم الديمقراطية وسأكون آنذاك كلّي آذان صاغية، أمّا

أن تتحكّم خالتي بهيجة في مصيري فلا أسمّي هذا إلاّ استبدالا لدكتاتوريّة الطغاة بجبروت العامـة والغوغاء، اللـهمّ قد بلّغت

آخر القول:

سبقوني إليها وما افتضّها أحدُ

لستُ فحلا ولكنّني الجسدُ

بي كتبتُ لها

وعليّ رسمت ملامحها واعتكفتُ

ستطرق بابي القصيدةُ

إذْ ما تقوّلت يوما عليها

ولم أستعر قلما أو لسانا

وما غرّني الزبدُ

وليكنْ أنّني في سجلاّت عشّاقها عددُ

سنرى مَنْ ستُشرق من يدهِ

ونرى مَنْ سيلفظه الوقتُ والبلدُ

الغربلة التاريخيّة

الوطن العربي يغربل موروثه الهائل ويطبخ مصيره وغده على نار فادحة، إضافة إلى بعـض التوابل الأجنبية من هنا وهناك، هذا ما يحدث ببساطة شديدة وأعتقد أنّ المـواكبين لهـذا الحـراك التاريخي العظيم محظوظون جدّا رغم ما كان وما سيكون من أهوال وأشجان.

نعم ثمّة غربلة شاملة تقع اليوم بعد أن تأخّرت لعدّة أجيال وربّما لقرون من الزمن العربي الرتيب البليد، ظاهر الأمر رفضٌ لحكم الطغـاة ورغبـة في التحـرّر والانعتـاق، لكـنّ المـسألة أعمـق بكثير ممّا يظنّه البعض، فهذا الزلزال الشعبي لا يستهدف أنظمة الحكم فقط بل يرنـو إلى تحقيـق ثورة ثقافية معرفية حاسمة، وإلى تغيير جذريّ في بنية العقل العربيّ وإلى تطهيره وربّما رسكلة جزء كبير من مخزونه العقائدي وما ترسّب في باطن الإنسان العربيّ عـبر دهـور، طغـت عليهـا الخرافـة والشعوذة والاستبداد، وتخلّلتها تجلّيات معرفيّة وحركات تمرّد فرديّة من قبـل مـصلحين ومفكّـرين ورجال دين متنوّرين وشعراء منفلتين وغيرهم من النخب الذين غادروا الحياة وفي نفوسهم شـجن وحسرة.

واهم من يعتقد أنّ الإنسان العربيّ سيواصل مجاراته للأيّام والـسنين دون أن يغربل دواخله الضاجّة بما لا يحـصى مـن المتناقـضات ودون أن يفـرز إرثـه الـضخم ويلقي الشوائب في مزبلة التاريخ، إذ لا بدّ من إتاحة مساحة أكبر للحدائق المخفيّـة في باطن كلّ منّا، ولا بدّ من تسليط ضوء الحريّـة عـلى كنـوز تراثنـا الفكـري والأدبي

لتهتدي بها الأمّة وتواصل مسيرتها بالنور وفي النور، أليس من الغبن أن تبقى سيرة أبي ذرّ الغفـاري غامضة لدى الأغلبيّة الساحقة من هذه المجتمعات المهمّشة عمدا؟، وألم يحن الوقت بعـد لإطفـاء النار التي أحرقت كتب ابن رشد ؟، ثمّة كنوز تحت رماد الفتن التـي انـدلعت عـبر تاريخنـا العـربي الإسلامي، ثمّة طواسين الحلاّج المصلوب وقد آن أوان نفـض الإهـمال عنهـا، وثمّـة صـوفيّة أبي نـواس المتسترّة بأشعاره المتظاهرة بالمجون والانحلال، ستكون أكبر عمليّة غربلة يشهدها تـاريخ الإنـسان، لقد سبقتنا شعوب وأمم إلى ترتيب الذاكرة وترميم العقل ولكن لا بأس، ها قد حان دورنـا للقيـام بغسيلنا الداخليّ، علينا فقط أن نعتصم بالصبر والأمل والتحدّي وأن نثق في عظمة هـذه المأموريّـة التاريخيّة، يا إلاهي أخيرا سنكنس أطنانا من الشعوذة والتخريف وسنعلّق ديننا الإسـلامي المنـير في سقف العالم، نعم سنعترف بأخطائنا ونعتذر لابن سينا والفارابي وابن عـربي وابـن الجـزّار والمتنبـي وللثعالبي وعمر المختار وكلّ من نثروا بذور الحبّ والعدل والإباء في أوطاننا ونفوسنا.

ثمّة عمل جبّار في انتظار كلّ واحد منّا وكـلّ واحـدة منّـا طبعـا (كي لا تغـضب عـليّ المـرأة صديقتي وحبيبتي وحليفتي الأبديّة)، ثمّة إنجاز استثنائي في انتظارنا فلنتوكّل على اللــه ولنتكـاتف ولنتسلّح برحابة الصدر ورجاحة العقل وبالمعرفة والحكمة خاصة ولندّخر الكثير من الصبر والعناد، إذ لن تكون المهمّة سهلة... لكنّها ليست مستحيلة.

آخر القول:

ثمّة ما ثمّةْ

ثمّة أحزان جمّةْ

ثمّة ندمان في بطن الغولْ

ونديم لم يسعفه الدمع فغنّى

ثمّة خرقٌ تقطر نفطا ودما تُدعى الأمّةْ

وظلام يُدعى نورْ

ثمّة قفص في ذات العصفورْ

وطيور في قفص مستورْ

ثمّة أشباح في الخيمةْ

ونجوم في الغيمةْ

ثمّة زيت في القنديلْ

فضفضة

رمضان مبارك أيها الطغاة جميعا دون استثناء، أيها الكامنون في مقاهي اليسار وأنـتم أيهـا المتسترّون بعباءة التقوى والعفّة، وحتّى أنـتم أيهـا المراوحـون في "البـين بـين" المـائلون مـع الـريح حسب مزاجها الظرفي، ولا أستثني نفسي كذلك فكلّنا جبابرة بامتياز، لا نؤمن بوجود كائنات أخرى تخالفنا الرأي وإن تظاهرنا بعكس ما نبطن، وما هذه الأهوال التي تعصف بنا من كـلّ جانـب وفي كلّ قطر عربي إلاّ خير دليل على ما أصدح به اليـوم، صراحـة صرت عـلى يقـين حـادّ كالخـازوق أنّ العقل العربي مهووس بالإقصاء ولا دين له غـير محـو الآخـر، تمعّنـوا في مـا يحـدث لنـا عـلى طـول الخريطة العربية: سباب وشتائم مخجلة، اتّهامات متبادلة بالخيانة والكفر وغيرهـا مـن الاتّهامـات المحليّة والمستوردة، ضرب ولطم وركل وسحل في ميادييننا المغبرّة الحزينـة، حيـل بدائيّـة يقـوم بهـا الجميع لإلغاء حقّ الآخرين في التعبير والتفكير وفي الوجـود أصـلا، وكلامـي هـذا ينطبـق عـلى جميع التيّارات دون استثناء جهة واحدة، فلا يسار ليبيرالي ولا يمين معتدل، لا شيء غـير نفـاق عـربيّ مـذهل ومقـزّز ومتّفـق عليـه، كـاذب مـن قـال أنّ العـرب اتّفقـوا عـلى أن لا يتّفقـوا، فقد اجتمعوا على حبّ النفاق وعشق النفي وادّعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، من ذلك مثلا أنّ ابن أحد الأساتذة الجامعيين التونسيين والنقّاد الأجلاء كفّـره هكـذا دفعـة واحـدة، ولم يكتـف بذلك بل اتّهم جميع أفراد العائلة بالـضلال، وقـد آلمنـي أن أرى ذاك الحـزن البـالغ والحـسرة الفادحة على وجه أستاذنا الجليل، كما لا يفوتني ذكر ما جرى بين شابين مـن عـائلتي الكـبرى هما أبناء عمّ، فقد احتدّ بينهما الجدل إثر التغيير الأخير الذي وقع في مصر، ممّا دفع "المتنوّر"

فيهما إلى إرسال كلام بذيء إلى الآخر المغلق تماما والمحتاج إلى تصليح وترميم فوريّ، هذا القليل القليل ممّا يعتمل اليوم في بيوتنا وقرانا ومدننا، فكيف لا أشكّ في قدرة العقل العربي على قبول الآخر؟، وكيف لا أتطرّف أنا الآخر في رأيي والحال أنّي أستبطن نفس الفكر وأحمل ذات الجينات العربيّة الغريبة العجيبة، لست بصدد ازدراء قوميتي ولكنّي حزين حتّى الضياع ومتألّم مثل ملايين الجموع التي خرجت لمواجهة رصاص الفراعنة الجدد والمطالبة بالحريّة والكرامة والعدالة الاجتماعيّة، ولم تجن غير هذه الفوضى الدمويّة المرعبة، لم يحدث أن تلعثمت وارتبكت واحترت مثل هذه الفترة التاريخية الحرجة والخطيرة، أحيانا أعلّل نفسي ومن حولي بأنّ الأمّة تعيش مخاض الثورة الثقافية الكبرى، وأحيانا أؤكد لليل والنهار وما بينهما من شجر وحجر وبشر أنّ العقل الغربي اللئيم كاد لنا المكيدة العظمى، وقد أُصاب بالبكم لساعات طويلة وأعتزل الخلق بدءا بزوجتي المرتعبة وأبنائي المتحمّسين لرؤية " دم الأعداء "، ولا أعداء إلاّ نحن، لا خطر قادم إلاّ من فكرنا الإقصائي المتنكّر في أشكال تعبيرية شتّى وتعلاّت واهية وشعارات ثوريّة ما أنزل اللـه بها من سلطان، مثل " نموت نموت ويحيا الوطن"، ولست أدري بمن سيحيا الوطن إن تواصل هذا الاقتتال الأهلي والتطاحن الشعبي، أعلم أنّ أغلب قرّاء هذا البوح حزانى مثلي جرّاء ما آلت إليه الثورة العربية وهم في غنى عن مثل هذا الشجن الآخذ لشكل مقالة صحفيّة، أعلم ذلك ولكن ما بيدي حيلة، ثمّ إنّه حديث الإبن لأهله وشكوى الكهل لأصحابه وبوح الملتاع لدمه المسكوب في الشوارع والساحات، فمعذرة إن أسقطت عليكم غيماتي وليكن شفيعي لديكم أنّني لم أستثن نفسي من جمهرة المرضى

بالإلغاء والإقصاء، وما هي إلاّ محاولة عفويّة للتصالح مع الإنسان الكامن فيّ، الإنسان الداعي إلى احترام الآخرين وقبول حقيقة التنوّع والتعدّد والاختلاف.

آخر القول :

دبّ الشجن في حقول البدن وفي مطموراته العميقة

دبّ القيح في لحم الأوراق وذهب ببياضها الآسر

ها يداي الحانيتان تضعانها في فم النار

وتطلقان من النافذة الأوراق البيضاء الباقية

لا كتابة بعد اليوم إلاّ على التراب وللتراب

زفرات الطفل الأخير

أصدقائي كبروا، تكرّشت بطونهم وابيّضت شعورهم وذقونهم وتقوّست ظهورهم أو تكاد..، جميعهم ذبلوا واستكانوا وتابوا عن اقتراف الحياة، باستثنائي أنا فما زلت طفلا بعد ولن أكفّ عن اللعب والعبث داخل هذه الغابات الحديثة المتشبّهة بالدول والأوطان، نعم لم أزل طفلا رغم تخاذل الجسد وتفكير ابني الأكبر في الزواج وفي مصائب أخرى، ورغم تحوّل حبيبتي من زهرة قاتلة إلى جدّة تحرّم على أحفادها الاقتراب من شرفة شقّتها العالية، تلك الشرفة التي مازلت أرفع بصري وروحي إليها كلّما مررت بها في طريقي إلى جحيم ما..، تجاوزت الخمسين بخريف واحد وفقدت أثناء اللعب بالأشياء والكلمات، فقدت أصدقاء وأصفياء، فهل قدر الإنسان أن تكون حياته بمثابة عدّاد لإحصاء من يتساقط من شجرة أحبّائه وإخوانه؟، أين منّي شبيهي رعد مطشّر* ؟ ذاك المغدور عند حاجز إرهابيّ قرب بغداد، أين منّي بلقاسم المزداوي؟** أخي الذي لم تلده أمّي، مشاكسي الطيّب الذي قذفته سيّارة إلى باطن الأرض وهو يؤدي واجبا إنسانيّا رائعا (كان قد انتهى لتوّه من تنظيف وتبييض قبر والد أحد أصدقائه المغتربين وما إن خرج من المقبرة حتّى باغته الموت في شكل سيّارة رعناء)، أين من وحدتي ذاك المجنون محجوب العياري؟***، كان أغنى الفقراء وأبلغ الشعراء وأعتى العشاق، نام فلم يحلم كعادته، بل خيّر الغياب وهو في أوج هبوبه واندلاعه في كلّ شيء..، لست أدري من أجّج فيّ الحنين إليهم وإلى آخرين يتدافعون بالمناكب في أروقة الذاكرة، ولعلّ ما يحدث لي ولبلادي ولأمّتي من محن متتالية ومن أهوال تكاد تأتي على كلّ شيء حيّ، لعلّ هذه الفوضى العربيّة المروّعة

هي التي دفعتني إلى الاستنجاد بأبهى من عرفت من الخلق، شعراء وأدباء في غاية اللطف والكرم والانفتاح على الآخر، كرّسوا حيواتهم لبذر الخير والحبّ وقيم التسامح والعدل وساهموا قدر الإمكان في إسعاد من حولهم من أهل وأصدقاء وغرباء كذلك...، لعلّي أنقل إليكم تعبي وذهولي ممّا يجري في شكل حنين إلى قامات غاصت في التراب..، لست مشتاقا وما بي لوعة يا أبا فراس، لكنّني مذعور ومرتبك تماما وأنا أعاين خراب البلدان وضياع الأوطان، وأتابع من بعيد تململ باقة من أصحابي العرب المتورّطين في الثقافة العربية والجغرافيا العربية والمهزلة العربية الحديثة التي لها أكثر من إسم: بدءا بالثورة وانتهاء بالمؤامرة، تُرى هل سينجو هاني نديم**** ذلك الجبل المغترب؟، هل سينجو من نزيفه اليوميّ على بياض أوراقه وسواد أيامه؟، ولماذا اتفق العرب جميعهم هذه المرّة على تدمير بلاده بدم بارد وأيد لا يعتريها الارتعاش؟..، وماذا بوسعي أن أفعل لابراهيم جابر *****والحال أنّ فلسطين أمست جرحا ثانويّا في أرشيف هذه الأمّة الغريبة العجيبة، أمّة تدعو إلى الجهاد في سوريا وتصاب بالبكم كلّما تمّ انتهاك حرمة المسجد الأقصى، إبراهيم المتدفّق شلاّل رفض والجامح مثل ريح عمياء، ماذا بوسعي أن أقدّمه له ؟، وأنا الطفل الكبير المحاصر بما لا يُحصى من نكد وخيانات وعجائب تونسية صرفة..، جراحاتي كثيرة ومنتشرة على جسد الأرض العربية من الملح إلى الملح، وأنا أعي تماما كطفل أبديّ العبث أنّ الحياة لعبة قصيرة ولا بدّ من اقتراف أجمل الذنوب المتاحة، كالكتابة ورفع "لا" في وجه كلّ من لا وجه له، ومشاكسة الظلام بكلّ أشكاله وتعكير مزاجه على مدار الفصول الأربعة حتّى لا تصبح الحياة فصلا واحدا موحشا وضيّقا ورديئا، أريد أن أواصل ما بدأته من اكتشافات عظيمة: تلعثّم ابنة الجيران، غياب أمّها في ساعات

معيّنة، عجز حارس البستان المجاور عن الركض واللحاق بي، تعنّت الكلمات وانصياعها كلّما واجهتها بعنادي الأسطوريّ، هذيان خصومي باسمي واطّلاعهم خفية على نزيفي الشعريّ، ذهول الموت من عدم اكتراثي به، واكتشافات أخرى كثيرة في انتظار حواسي جميعها، لكنّ أصدقائي الغائبين في ظلمة الأرض والمنفيين في أوطانهم الضيّقة ينغّصون ما تبقّى من حياتي ويعرقلون جموحي، ومع ذلك لا يمكنني فعل شيء تجاههم سوى أن أحبّهم وأدعو بالرحمة لمن رحلوا.

*شاعر عراقيّ إغتالته يد الإرهاب منذ عقد من الزمن

** أديب وصحفي ليبي

***شاعر تونسي

**** شاعر وصحفي سوري مقيم بالسعوديّة

***** كاتب وإعلامي فلسطيني مقيم بالإمارات

جولة في عقل

مواطن عربي

آنساتي سيّداتي سادتي، مرحبا بكم بمختلف شطحاتكم الايدولوجية، خذوا أماكنكم واسترخوا تماما فبعد لحظات قليلة سننطلق معا في جولة افتراضية داخل عقل مواطن عربيّ، قد يكون واحدا منكم، فلا فرق اليوم بين شرقيّ ومغاربيّ إلاّ بمحلّ إقامته من الفوضى الخنّاقة.

حسنا سنستهلّ رحلتنا بالمشاهد ونختمها بالأصوات حسب إرادة الأنا الكاتبة، قولوا: اللهمّ لا حسد:

1 ثائر ومجاهد في سبيل الحرية والكرامة والعدل، يمسك بيد واثقة قلب جنديّ سوريّ، يقرّبه من فمه ويقتطع جزءا منه، ثمّ يلوكه بتشفّ وحشيّ وانتشاء ساطع.

2 عراقيون بقمصان ناصعة البياض يتحاشون دوس أجساد دامية ملقاة في عرض الشارع، كمن يتفادى بركا من الوحل، وهو في طريقه إلى موعد مع الحياة.

3 مصريون يتهافتون على فتى نحيل، ويعبثون بإنسانيته :" لكمٌ، لطمُ، ركلٌ، سحلٌ، ويبدو على وجوههم توهّج الانتصار على العدوّ، لكنّ المأساة أنّ الفتى النحيل دامي الروح والوجه... مصريّ ابن مصريّ.

4 شابّ تونسيّ يتسلّق مبنى جامعة تونسية ويسقط العلم التونسي، فجأة تظهر في الصورة فتاة تونسية، تمدّ يديها لمنع المعتدي من إهانة علم بلادها، فإذا بها

ملقاة على سطح البناية الجامعية بفضل رجولة وشهامة الـشاب التونـسي المـصرّ عـلى إذلال بـلاده وعلمها ومواطنيها.

5 رجال ليبيون يتقدّمون الواحد تلو الآخر إلى عمود مثبت في قلب سـاحة عموميّـة، وكـلّ من يحين دوره ينزع قميصه ويحتضن العمود، فيقوم رجل بربط يديـه ويقـوم آخـر بإقامـة الحـدّ عليه، وذلك بجلده على مرأى من المارّة والأرض والسماء.

ــ نكتفي بهذا القدر من المشاهد الرائقة، ولنقتطف باقات ممّا تراكم مـن أصـوات داخـل عقل هذا المواطن العربيّ الأبكم المذهول:

1 انفجار سيّارة مفخّخة في سوق شعبيّ، ممّا أسفر عن مقتل خمسة وخمسين شخصا، من ضمنهم نساء وأطفال.

2 شكرا لكم على دعمكم، معنويات الثوّار مرتفعة، شالوم.. شالوم (صوت معارض سـوريّ في حصّة تلفزية للقناة العاشرة الإسرائيليّة، إثر الغارة الأخيرة على دمشق).

3 موتوا بغيظكم يا أيتام الغرب الكافر

4 هؤلاء جراثيم (من حوار سابق للرئيس التونسي المؤقت، في إشارة منه إلى السلفيين).

5 شغل حريّة، كرامة وطنيّة.

6 الشعب مسلمْ ولن يستسلمْ.

7 دم الشهداءْ ما يمشيش هباءْ.

8 الإخوانْ ما فيهمشِ أمانْ.

9 قرّر وزير التجارة التخفيض في سعر الياغورت بخمسة مليمات.

10 غدا طقس مشمس وبحر قليل الاضطراب.

11 يا راجلْ قومْ جيبْ الخبزْ، قبل ما يطيح الليلْ، البلادْ ما عادْ فيها أمانْ (صوت مديرة المؤسسة الزوجية).

ــ ضيوفنا الكرام، شكرا على مشاركتنا رحلتنا الافتراضية السريعة بين تصدّعات عقل مواطن عربيّ، ... نرجو أن تكونوا قد استمتعتم، بل إنّنا لا نشكّ في ذلك مطلقا، نراكم بخير.

آخر القول:

ما أريد سوى الجنونِ

أريد أن تتجسّد الكلمات حين أقولها

لأقود جيش المفردات العابسات إلى خصومي

رغبتي في الفعل عاصفة وروحي وردة مقطوفة

والأبجديّة لا تعي ما يعتريني

خلل بالغ وخطير

لست من المؤيّدين للرأي القائل بأنّ ما تـشهده المنطقـة العربيـة لـيس إلاّ مـؤامرة كـبرى تهدف إلى بثّ البلبلة وتقسيم المقسّم وتجزئة المجـزّأ، بـل بي عقيـدة راسـخة أنّ شـعوب المنطقـة انتفضت في وجه الطاغوت بعد عقود من الرضوخ والاستكانة، لكنّي أرى كذلك أنّ القوى العظمـى وبعض خدمها الأوفياء يحاولون جاهدين تحويل وجهة هذه الثورات إلى خراب مبين.

لستُ ضالعا في العلوم السياسية ولا راغبا في اجترار الكـمّ الهائـل مـن التحاليـل الـسياسية التي تتهاطل على أمّ رأس المواطن العربي المغبون المذهول الموشك على ضرب رأسـه بـأقرب حـائط أو أيّ شيء صلب، ما أريده من هذه المقالة هو أن أشير بقوّة إلى خلل بالغ وخطير، خلل كـامن في كلّ محاولات البناء والنهوض التي تقع اليوم في أكثر من قطر عربي.

ثمّة مسألة هامة لا أثر لها في برامج الأحزاب الصادحة صباحا مساء في القنـوات الفـضائية، ثمّة غياب تامّ لقضيّة جوهريّة في حلقات الحوار الإذاعيّة والتلفزية، .. يجلس الواحـد منّـا ويواجـه سحنة التلفاز وينخرط في التنقّل من قناة إلى أخـرى إلى أن ييـأس تمامـا مـن إمكانيـة العثـور عـلى برنامج ثقافيّ، فإن حصلت المعجزة وتمّ الظفر بحصّة ثقافيّـة، فتكـون في أغلـب الأحيـان سـطحيّة، ترتكز أساسا على ما يسمّى " الترفيه "، حتّى لا نقول :" التمييع والتخدير".

يا إلاهي لا وجود لبرنامج يطرح وجوب قيام ثورة ثقافيّة وآليات تحقيقها حتّى تكون موازية لما يقع اليوم من حراك اجتماعي وسياسي استثنائي وتاريخيّ، لا شيء من ذلك ولا حديث سوى عن "الثورة المقدّسة المباركة "، هكذا دون تحديد أيّة مفاهيم ودون مجرّد الإشارة إلى خطورة غياب أو تغييب الجانب الثقافي والمعرفي في ما نشهده اليوم من تحوّلات كبرى لا سابق لها في تاريخنا المعاصر.

ماذا فعلنا إذن؟، هل ثرنا على الأنظمة الفاسدة التي راهنت على التصحّر الثقافي وتجهيل المجتمعات لإحكام السيطرة عليها، هل ثرنا لنعيد نفس التجربة المريرة الأليمة القائمة على تلخيص الإنسان العربي في بطن تأكل وآلة تتناسل ؟، هل قدّمنا كلّ هذه التضحيات الجسيمة لنستنسخ الأميّة الاجتماعية التي كانت سببا رئيسا في ما آلت إليه أوطاننا من ذلّ ومهانة وجبروت وطغيان؟

لنضرب مثلا، أو نلقي حجرا في هذه البركة الراكدة الآمنة المطمئنة، هذه البركة المتظاهرة بالتجدّد والتغيّر، أين ثقافة الحوار والاختلاف وقبول الآخر في منابرنا وبرامج أحزابنا وفي ما يبثّ من خور وصياح ونباح في شاشاتنا ؟، أين نحن من التحوّل الجذريّ الذي ننشده؟.

لقد وقعت الثورة في كلّ شبر من أقطارنا، لكنّها لم تمرّ مجرّد المرور بالعقل العربي ولم تلقّح مجتمعاتنا بلقاح الثقافة والمعرفة، لذا يمكن القول أنّ الشرط الأساسي لنجاح الثورة العربية مفقود يا ولدي، مفقود مفقود مفقود.....

آخر القول:

" لا شيء سوى كُتل تتصادم في أسواق اللذاتْ

ذا ما تبصره اليوم وما ستراه غدا

إن أمهلك الموت

ولم يفقأ عينيك سراب أو حشراتْ

ذا ما ستراه

حتّى تتحوّل حرّيقا في مقبرة الغرباءْ

ذا ما أدركه قابيل فدشّن بحر الدم

وغزا مدنا ونساءْ

****

لا شيء سوى أجساد مرتزقةْ

تتناحر في ملكوت الرغباتْ

رايات شتّى

سوداء وخضراء ورقطاء

وأقنعة طينيّةْ

تتعانق تحت الشمس ولا تتفتّتُ

لا تمحوها الريح ولا الماءْ

لا تنزعها إلاّ الكلماتْ

بأظافرها المدماةْ"

أيها الجاثمون

على ربوة الوقت

ما تزال الربـوة موجـودة ومـا يـزال المقرفـصون فوقهـا متـوفّرين بنـسبة لا بـأس بهـا، بـل ومرشحّة للارتفاع وهذا بفضل ثقافة النأي بالنفس التي تشبّعت بها سـلالتنا عـبر تاريخنـا المـشرّف جدّا، بشهادة الدم المسفوح من كربلاء إلى مذابح سوريا الحديثـة، مـرورا بتنـاحر ملـوك الطوائـف وزمرة الطغاة الذين عصفت بهم الانتفاضة العربية الأخيرة.

ما يـزال بيننـا مـن يتوهّمـون أنّ حيـادهم في الحـراك الـسياسي والاجتماعـي والتجاذبـات الفكرية والعقائدية، سيكفل لهم الأمن والأمان، وهذا هو الغباء بعينه والانتهازيـة بعينيهـا وذيلهـا كذلك، لكن غاب عن هذه الشريحة المتحذلقة والمتحالفة مع نرجسيتها المريضة أنّ رحـى عظيمـة تدور الآن ولا مفرّ لأي طرف من حتميّة المرور بقلـب الرحـى الـدائرة، لا منـاص اليـوم لأحـد مـن المشاركة في تحديد مستقبل هذه الأمّة كرها أو طوعا، سلبا أو إيجابا.

واهم من يعتقد أنّ صمته سينجيه من الهول القادم الذي بدأت ملامحه تتـشكّل بقـوّة في العراق وسـوريا، وتتّـضح في أكـثر مـن فاجعـة وذبحـة ومهزلـة، لقـد لُغّمـت عقـول كثـيرة وشُـحذت سكاكين وشُحنت بنادق ونفوس، ولا خلاص لأي كان إلاّ في مواجهة الخطر الذي يدنو بخطـى حثيثـة، حذار إنّ من يذبح الطفل والعالم ومؤذّن الجامع، لن يتوانى عن تـصدير سـكّينه إلى زهراتنـا وقاماتنـا، حذار إنّ من يرسلون أبناءنـا إلى محرقـة الـشرق ويزفّـون بناتنـا إلى " جهـاد المناكحـة "، لـن يـستثنوا

أسرة ولا عائلة ولا عشيرة ولا قبيلة، كلّ أوطاننا بكلّ شبر فيها مفتوحة اليوم لتجّار الرقيق الحديث وأعراضنا معروضة لفتاوى غريبة عجيبة، منافية للأخلاق ومجانبة للفضيلة ومروّجة لدعارة مقزّزة باسم الدين وهو منها براء.

أيها الجاثمون على ربوة الوقت، أيها الطيّبون المسالمون المستسلمون للواقع والمبتسمون في مواقعكم الخلفيّة، حذار إنّ من ينتهك حرمة القبر ويمثّل بعظام الأسلاف دون ردع ولا عقاب، سيلتفت قريبا إلى بيوتكم الموصدة بإحكام وسيجرؤ على حرماتكم، هل تعتقدون حقّا أنّ من يكفّر اليوم شريحة من المجتمع سيجد حرجا غدا في تكفيركم، وإن كنتم من المتّفق على صلاحكم واعتدالكم وحيادكم، ولنا في تاريخنا العربي الإسلامي شتّى الشواهد والأمثلة الحزينة المشينة، بدءا باغتيال خيرة الصحابة والخلفاء، فمن غرائب هذه الأمّة مثلا، أن يُغدر الفاروق عمر بن الخطاب، ذاك الذي شهد له حتّى الأعداء بالعدل والرحمة والتواضع والإيثار.

مأساتي الشخصية أنّني أؤمن بحقّ الجميع في العيش الكريم وفي الاختلاف والتميّز داخل مجتمع، يرى البعض من المنتمين إليه إنّ الاختلاف في الرأي جريمة نكراء، لكنّني لن أكفّ عن الدعوة إلى التعايش والتنافس النزيه في مناخ ديمقراطي يكفل حقوق الجميع، كما لن أكفّ عن الإشارة إلى كلّ جهة يصدر منها خطر ما يهدّد السلم الاجتماعي ويستهدف حريّة التفكير والتعبير، أعتقد أنّ هذه الشعوب المغبونة لم تقدّم خيرة أبنائها شهداء وجرحى وأرامل وأيتاما إلاّ كي تنعم بالحريّة التي حرمت منها طوال عقود مشؤومة، لذا لن أستلقي على الربوة ولن أنافق ولن أوافق إلاّ على ما أراه صائبا وصالحا لأمّتي ووطني، وقد صدق الشاعر في قوله: " من لم يمت بالسيف مات بغيره "، حذار فمن يصمت اليوم سيُقتلع لسانه غدا أو ربّما مساء اليوم.

آخر القول:

نضجت تفّاحة القول

وحاولتُ مرارا

غير أنّي لم أطلها

يئس السارق والعاشق منها

يئس الكلّ ومرّوا

يدُ من هذي إذنْ؟

هذي التي تمتدّ كالغصن إليها

وتصرُّ؟

كثر الحديث

عن التي أهواها

غـصّت الأرض العربيـة بحلقـات اللغـو ومنـابر التحـريض عـلى الفـوضى، ولكـنّ مـا يثـير الاستغراب والريبة والحنق كذلك تخصّص البعض من عباقرة الـزمن الجديـد في التنبيـه مـن خطـر المرأة على الوجود الإنساني، وفي هذا السياق المريض، " كثر الحديث عن التي أهواها "، عـن التـي هي أمّي وأختي وحبيبتي وصـديقتي، إذ يبـدو أنّنـا شـفينا مـن كـلّ أمراضـنا القديمـة والجديـدة، ونجحنـا كـذلك في حـلّ كـلّ مـشاكلنا الاقتـصادية والاجتماعيـة والوجوديّـة، وقـضينا عـلى البطالـة والخصاصة والانتهازيّة والرشوة والظلم بأشكاله المختلفة..إلخ، ولم يبق لنا سوى خلـق حـلّ حاسـم لمعضلة وجود المرأة على ظهر هذا الكوكب، وثمّة في هذا المجال الخطـير اقتراحـات وجيهـة، تتّـسم بالحكمة ومشتقاتها، ونظرا لتهاطلها على دماغي على طريقة الأمطار الطوفانية، سأقتصر على ذكـر القليل منها، فلا قدرة لهذا الـنصّ التنفيـسيّ عـلى اسـتيعاب آراء إخـوتي العـرب الـشبيهة بالـسيول الهادرة:

ــ ضرورة الدفاع عن حقّ المرأة في التجـوّل مـن المطـبخ إلى غرفـة النـوم (ثمّـة مـن يقـترح تسميتها بغرفة "إبداع النسل")

ــ وجوب الانتصار للمرأة ومؤازرتها في حربها الضروس مع جسدها الشيطاني، حتّـى ترتـاح المسكينة وتريح جميع ذكور الأمّة الناشطين على مدار الساعة.

ــ تغليفها بإحكام، إذا اقتضت الضرورة القصوى أخذها إلى المستشفى... إلى غرفة الإنعـاش تحديدا، فلا بدّ أن تكون في حالة احتضار لنتّخذ قرار حملها إلى المستشفى، فهو قرار خطير لما قـد يترتّب عنه من إرباك لأمن الشارع والحيّ والوطن والأمّة

ــ الحرص على تلقينها المواء الخافت: لغـة الطاعـة والانـصياع، مـع تـذكيرها بـأنّ الـصمت أفضل، ولا بأس من البكم..، إذ أنّه لا يعوق قيامها بأقدس واجباتها: الطـبخ وتنفـيس (سي الـسيّد) والدعم الدؤوب للسلالة (مع تحمّلها طبعا لكلّ خطأ مطبعي، قد ينجرّ عنه إنجاب أنثـى وإضـافة عورة أخرى إلى مملكة الذكور الأبديّة)

ــ تحميلها مسؤولية ما حدث وما يحدث وما سيحدث من كـوارث ومـصائب وانتكاسـات وفتن ومحن، ولا يخفى عن كلّ نزيه وعاقل ما تسبّبت فيه من أزمات بطالة عالميّة ومن مجاعـات وحروب وقرف، وقد تدّخل السيّد الذكر وعالج كلّ ما اقترفته المرأة بحكمة واقتدار، وأبـدع حلـولا ناجعة، ففي الصومال مثلا، وزّع السلاح على البطون الخاوية قصد الترفيه عن النفس وتصفية أكثر عدد ممكن من الأفواه المفتوحة للريح.

هذه بعض المقترحات النيّرة التي يتفضّل بها يوميّـا أبنـاء المـرأة، بعـد أن اسـتنزفوا ثـدييها وشبّوا في ظلّها وتحت حمايتها واقتاتوا من خبزها وعرقها وأعصابها(ياكلو الغلّة ويسبّو الملّـة) كـما يقول المثل الشعبي... سبحان اللـه

أعتقد أنّ النظـام الـذكوري العـربي لـن يحقّـق أمنـه القـومي، إلاّ إذا أخـذ برأيـي القـاطع السديد:

لابدّ من تنظيم حفل تاريخي باذخ، ممتدّ من الملح إلى الملح، يقع فيه إعدام المـرأة ودفـن هذه العورة.. اللوثة.. العار.. الخـزي..إلـخ، في الـدرك الأسـفل مـن المحـو، لتـسلم الأمّـة وينـتعش الاقتصاد وتستشري السكينة والأمن والأمان في أجمل الأوطان

(اطمئنّوا، سيبدع لنا الغرب الشيطانيّ آلات رائعة للإنجاب، مختصّة في ولادة الذكور فقط، ولا خوف على سلالتنا الرهيبة من الانقراض. دام لنا العزّ)

آخر القول:

" إنّي أحبّك منذ كان جدار بيتك عالقا بجدار بيتي

كنت لي والأرض كانت لوحة لرسوم قلبي

هل تذكرين طلوع وجهي في طقوس عناقنا وغروب صوتي

كنت لي، مازلت لي

وإن انتهينا شاعرا وقصيدةً

بوح عائد من المغرب

كان يتحدّث بحماس رهيب وإن لم يخل من احترام وتقدير للضيف الذي هو ليس إلاّ أنـا، دافع بكلّ ما أوتي من حجج وبراهين على حقّ الأمـازيغ في العـيش بكرامـة في المغـرب وأكّـد أنّهـم يمثّلون أغلبية السكان واستشهد بما عنّ له من أحـداث تاريخيـة ومـن أشـعار وأدب للدلالـة عـلى تأصّل الأمازيغية في الأرض المغربية...

هو شاب مغربي التقيته على هامش مهرجان الشعر والموسيقى بمدينة ورزازات المغربيـة، وبذلت جهدا لا بأس به لإقناعه بحتميّة التعايش وضرورة قبول الآخر وتجنّب التطرّف في المطالبـة بحقّ كلّ مكوّنات المجتمع المغربي والعربي عموما، ولعلّ أجمل ما شـدّني إلى هـذا الـشاب ترديـده طوال الحوار لهذه الجملة: " نحن لا نكره العرب فهم إخواننـا "، فالرجـل إذن طالـب حـقّ ولـيس داعية للفرقة أو الفتنة والانفصال مثلا، وهذا هو المطلوب في هذا الظرف الحرج التـاريخي، حـذار من تحويل وجهة هذه " الإصلاحات الثورية العربية" إلى انشقاقات داخل الجسد الواحد، فهذا مـا يرغب فيه الأعداء بقوّة، نعـم توجـد في الـوطن العـربي أقليـات عرقيـة ودينيـة وعـلى الأغلبيـة أن تحترمها وتلبي لها حقوقها كاملة دون نقصان، لكـن عـلى الأطـراف الأخـرى أن تعـبّر دون لـبس أو دوران عن حرصها على وحدة المجتمع والدولة والوطن، هذا ما سيصل بنا إلى برّ الأمان

. في مدينة ورزازات المغربية يبدو التعايش الجميـل بـين العـرب والأمـازيغ واضحا وجليّا، الكلّ يعمل، الكلّ يجتهد من أجل ازدهار المدينـة والمغـرب ككـلّ لا يتجزّأ، وهذا ما عاينته شخصيا من خلال حواراتي مع الناس في الأسواق والـساحات

العامة، في النزل وفي فضاء " القصبة " الذي انتظمت فيه سهرات المهرجان، ثمّة حرص من الجميع على احترام الآخر، بداية من تخصيص فقرات للشعر الأمازيغي، وفقرات للأغاني الأمازيغية في جوّ من التناغم الرائع مع الفقرات المخصصة للشعر العربي والأغاني العربية، كان الجمهور في غاية الروعة، منسجما مع ما يُقدّم له من إبداع شعري وموسيقي، ولكم همست لنفسي أثناء السهرات: هذا هو المطلوب، هذا هو الممكن الذي علينا التشبّث به

حقيقة لقد عدت من هذه المدينة المغربية الوديعة النشيطة كخليّة نحل، وأنا على وثوق تام بأنّ الغد أجمل، شريطة أن نكون حذرين ممّا يُدبّر لنا في كواليس المستعمرين الجدد، وأرجو أن لا أكون مخطئا، بل لست مخطئا فهذا ما أكّدته لي ورزازات طيلة خمسة أيام مرّت كالحلم...

عائلتي... التونسية

أختي الكبرى ترتدي الحجاب وترفض بشراسة أن تقاسمها امرأة أخرى زوجها، أمّا زوجتي فلا شيء فوق رأسها غير شعرها الذي لم يترك لها الأبناء بعض الوقت للعناية به، وعلى ذكر الأبناء، أتعبني أكبرهم فمرّة يغرم بالفتيات وأحيانا يولع بالصلاة، وفي ما يخصّني أنا فقد أكدّت على ذئبية الإنسان في روايتي الجديدة " جنّة الذئب "التي سيلقيها ابن عمّي في النار فهي من عمل الشيطان، أمّا بنات العائلة فسيضعنها تحت وسائدهنّ، ويعدن قراءة بعض مقاطعها قبل النوم وبعده، فالرواية طافحة بالانتصار لأجمل وأرهف خلق الله: المرأة.

كدت أنسى خالي المدمن على التجارة وابنه العاطل عن الحياة، فكلاهما لا علاقة له بروايتي ولا بالشعب التونسي وأحزابه المائة، وفي الحقيقة إنّ عائلتي فسيفساء من الأهواء والميولات والنوايا المعلنة والمضمرة ومع ذلك يحرص أفرادها على حضور كلّ مأتم وكلّ عرس، ولا يمكنني إحصاء عدد المرّات التي اختلطت فيها دموعنا، ولا المرّات التي رقص فيها الجميع جنبا إلى جنب، تحت أنظار وحماية عمّنا الحاج وصهرنا خطيب الجمعة، وجارنا النقابي الصارم، وأؤكد لجميع المحرومين أنّهم محرومون إلى حدّ الساعة وإلى الأبد، إلاّ في حالة قبولهم لإحدى دعواتنا ومشاركتنا الغناء والرقص ومقاسمتنا ماءنا وملحنا ودفئنا وحبّنا للحياة ولكلّ الكائنات الحيّة والميّتة، على فكرة أيها المتلصصون على أخبار عائلتي، عاد أخي الأوسط من غربته الإجباريّة، وأخبر أمّي برغبته في طرد البعض منّا وأبناء وبنات الجيران من بيتنا الصغير والرحب في الآن نفسه، كما وشوشها أنّه يحلم بتحويل بيتنا النابض منذ

كان، إلى "محكمة تفتيش" لفرز الصالح من الطالح، ولا شكّ أنّكم تسمعون الآن ضحكة أمّي البهيّة وقهقهة أفراد عائلتي التونسية

ولو أصختم السمع أكثر لتوضّح لكم دعاء أختي الكبرى: "ربّي يهدي ما خلق".

ها إنّها تواصل دعاءها وهي تتهيّأ لإعداد وليمة تليق بعودة أخينا الأوسط، في حين تصلني أنا فقط، دندنة أختي الصغرى وهي تتجمّل في غرفتها وتتواصل على الفيسبوك مع حبيبها الأول....

إطلالة من السطح

على الحديقة الاجتماعيّة

بحكم إشرافي على سطوح المدينـة العتيقـة برتبـة مـواطن صـالح، وقابـل للتأمّـل الـصامت وكتابة الشعر الرصين، أستطيع التأكيد لمن يهمّهم الأمر أنني لم ألاحظ تذمّر الأعشاب الطفيليّة من الحضور المميّز لنبتة الحبق المتربّعة داخـل الأصّ الخـاص بهـا، كـما لم تعلـن نبتـة الحبـق ولا مـرّة واحدة غيرتها من الحريّة المطلقة للحشائش المهيمنة على المشهد " الـسطحي" أو "الـسطوحي" إذا شاءت اللغة والقرّاء المتربّصون بكلّ خطأ يقع فيه الكاتب دون بذل عناء الجهد للبحث عـن مـبرّر واحد له، كأن يكون متبرّما من سطحيّة الحوارات السياسية التي يمنّ بها عليه "الفيسبوك" الغريب العجيب، بل لعلّ الكاتب يمرّ بمحنة عاطفيّة أو بوعكة ماليّة، الافتراضات كثيرة وأخطرها أن يكـون قد انتهى منذ قليل وقبل الجلوس للكتابة، مـن جلـسة اسـتنطاق داخـل حـرم المؤسـسة الزوجيـة العتيدة، وباح بكـلّ مـا لديـه ومـا في جيوبـه لأمّ أطفالـه.. العزيـزة جـدّا، .. عـلى كـلّ، هـذا لـيس موضـوعنا، لنعـد إلى الـسطح وإلى مـا يـضمّ في أرجائـه مـن كائنـات وأصـوات تـصلني الآن جملـة وتفصيلا:

ـ صوت المؤذّن القادم من الصومعة البعيدة نسبيّا، والداعي إلى أداء صلاة المغرب.

ـ صراخ جارتي المهذّبة، صراخها المتدفّق من أقرب نوافذها إلى أذنيّ، من الواضح أنّها تراجع دروس الشتم في حضرة ابنتها الكسولة.. الجميلة، والحقّ يقال أحيانا.

ـ سيل الموسيقى الصاخبة المنصبّ على أمّ رأسي من الطابق العلوي لجيراننا الجدد، المتحرّرين المتكبّرين على أهل الحي..، تصوّروا أنّهم لا يلقون التحيّة على أحد، وليس لهم دفتر ديون لدى دكّان الحومة، بل إنّهم لا يتعاملون معه أصلا.

ـ مواء ذلك القطّ السمين، الكلب ابن الكلب، ألا يشبع هذا المسخ؟، ألا يكلّ من معاشرة قطط الحيّ وما جاوره؟، ألا يتعب من المغازلة والتسوّل والصعلكة من سطح إلى آخر؟، وخاصة من إصدار هذا الصوت الطافح بالتزلّف والنفاق.

ـ طنين الدرّاجة الناريّة التي تخترق الآن أزقّة المدينة العتيقة، اللهم نجّ كلّ العابرين من راكبها المجنون، اللهم لتكن نهاية هذا " لكوبوي الحديث" في حفرة لا قرار لها، أو فليعانق شجرة الخرّوب الوحيدة المتجذّرة منذ البدء في منعطف الزقاق المظلم منذ البدء.. اللهم آمين يا ربّ العالمين....

هذه بعض الأصوات التي تصلني وأنا أباشر عملي التطوّعي اليوميّ كمتأمّل لسطوح المدينة العتيقة والسماء التي فوقها مباشرة، وقد ذكرتها تباعا بعد أن مررت بذكر أعشاب السطح ونبتة الحبق، ولسائل أن يسأل: "ما شأني أنا بعالمك الصغير أيها الكاتب؟"، والجواب بسيط: أردت أن أدعو الإخوة الأعداء إلى التعايش وقبول الآخر، فوجب عليّ تذكيرهم بتناغم عديد الأضداد الأخرى في مساحات أضيق بكثير من أوطاننا الفسيحة ومنابرنا المفتوحة، فإن كانت النباتات والحيوانات والأصوات قادرة على تقاسم رقعة صغيرة من السطح، وإن كنّا قادرين على سماع مختلف الأصوات والموسيقات وشتّى أصناف الضجّة في الآن نفسه ودون أن يحدث لنا مكروه، فنحن مؤهّلون بالتالي لمقاسمة أرصفة البلاد مع المختلفين معنا شكلا

ومضمونا، يمكننا العيش معا كما عشنا سابقا، ألم تجمعنا الأعراس والمآتم والمهرجانات والمظاهرات والحافلات وكلّ فضاءات الحياة؟، ألم نقترف الحياة جنبا إلى جنب، داخل البيوت وفي حضرة الأهل وفي زحام الغرباء؟، لم نكن يوما نُسخا لبعضنا البعض، كان وما يزال منّا اليمينيّ واليساريّ و"الرغيفيّ" والمائيّ والترابيّ والناريّ والهوائيّ، كان وما يزال منّا الفنّان والمتشبّه بالإنسان، والمغلق للتصليح والمفتوح لكلّ ريح.. .إلخ. عبرنا قرونا تحت سياط الجبابرة والطغاة وتآزرنا في المحن والشدائد، وجمعنا " قفّة " السجين وإن خالفناه الرأي والمعتقد، كم غفرنا لبعضنا البعض وهرعنا إلى ما فيه خيرنا ولمّ شملنا وتعاتبنا بالتي هي أحسن، فهل لابدّ من طغيان ديكتاتور علينا لنتجاوز اختلافاتنا الفكريّة والسياسية وغيرها؟، آمل أن نقدّم معا للحريّة أجمل هديّة تنتظرها منّا، بعد أن قدّم لها شهداؤنا الأبرار مهرها الغالي المعمّد بالدم، آمل أن نهديها تراحمنا وتسامحنا ورغبة صادقة في قبول الآخر كما هو، وليس كما نريده أن يكون.. سيظلّ العالم مفتوحا ومتنوّعا ومتعدّدا كما كان أبدا، فرجاء.. رجاء لا تحيلوا ثراءنا الايدولوجيّ فقرا أهليّا، ولا تجعلوا خصوبتنا الحضاريّة جدبا فكريّا، ما أجملنا ونحن نكوّن هذا الحديقة الاجتماعيّة..، ما أروع قامة السرو وما أينع العشبة المنبثقة تحت جذعها، مرحى بالجميع.. بل مرحى وأهلا وسهلا ومرحبا بالشوك العالق بالأزهار..ما لم يكن سامّا..مرحبا بغدنا المشرق...

آخر القول:

"نظر المنجّم في دمي سقط المنجّم في السؤالِ:

يا كلّ سكّان الفتى هل من سبيل للحوارِ؟.

تكاد تنقرض التحيّة بين أشجار البلادِ

تكاد تنقرض الظلالُ

وَحَرٍّ شمسِك يا حِمى

سيظلّ ظلّي للدواب وللزواحف والحمامِ "

الصور المت... سلّحة

لا مناص منه أبدا، ينغّص عليّ ترشّف قهوة الصباح، يصبغ الجريدة والمكتب بالدم، أهـرب منه إلى النافذة فتصلني عيّنات منه، تنطلق من حناجر أدمنت اجتراره، أغيّر المكـان بتعلّـة الحنـين إلى دفء الأسرة، أجده عالقا بشاشة التلفزة مكشّرا عن أنيابه، معتدّا بجبروته وقدرته عـلى اللحـاق بي في عقر داري، أتجرّأ كالعادة وأغيّر القنـاة وأبـايع عمـدا قنـاة خاصـة بالأطفـال "ملائكـة الغابـة الحديثة والقديمة"، ولسان حالي يقول: " لن يمـرّ ابـن الكلـب.. لـن يمـرّ..، أنـا الآن في حمايـة أفـلام الكرتون والصور المتحركّة الزاهية الراقصة الحالمة"، لكنّه يفتكّ المشهد ويتلـبّس بشخـصيات الأشرار غـزاة الأرض الآمنـة، وبالأبطـال المـدافعين عـن الخـير والجـمال، وإثـر كـلّ صـدمة، إمّـا أن أذهـب إلى أقفر مكان في العالم، كالمقبرة مثلا، وأقـرأ الفاتحـة عـلى أمّـي المـسالمة حيّـة وميّتـة، أو أردّ الفعل مباشرة دون مداورة فأنسحب إلى حجرتي وأنام.... ما الذي يحـدث بالـضبط؟، لم تحـوّل العالم إلى ساحة وغى وحلبة مصارعة؟، أم أنّه كان هكذا منذ البدء، والفرق الوحيد بين عـالميْ الأمس واليوم هو تعرية الإعلام للمسكوت عنه، وتفشّي وسائل الاتّصال الحديثـة في كـلّ بيـت وركن، إلى أن أصبح العالم، ليس قرية بل حجرة شديدة الضيق. يا إلاهي هل أنتمـي إلى هـذه الشريحة العنيفة من مخلوقاتك؟، لو كان للحيوانات ألسنة لاستنكرت بشدّة عنـف الإنـسانية وحرصها على توريث خـصالها الرهيبـة للأجيـال القادمـة، فبـصرف النظـر عـن الفظـائع التـي يقترفها الكائن البشري في مدارات الحروب المكـشوفة والمـستورة، وبـصرف النظـر كـذلك عـن سيل البرامج التلفزية المتخصّـصة في " المـصارعة الأمريكيـة الحماسـيّة الرائعـة" وفي المـصارعة

العربية المتّخذة لأشكال حوارات سياسية فكرية، تحتفي بالرأي والرأي الآخر، بصرف النظر عن كلّ أصناف الخور، لا يمكن اصطناع اللامبالاة في ظلّ ما تبثّه قنواتنا العربية المسلمة السمحة من أفلام كرتونية طافحة بالعنف والقتل ومكتظّة بجميع أصناف الأسلحة المستعملة منها في ساحات حروبنا، والمبتكرة بفضل رحابة خيال رسّاميها... ولم تنتجها معامل الأسلحة بعد، السؤال المؤرّق حقّا، إذا كان من حقّ الغرب أن يروّج سلعه المسمومة ويلقيها على أمّ رأس الوطن العربي، والصور المتحرّكة إحدى تلك البضائع الرائجة المربحة، فهل ليس من حقّنا ومن واجبنا أيضا الدفاع عن أطفالنا وحمايتهم من إدمان البطش وعشق القوّة بمختلف أشكالها؟، بدءا بالعضلات المفتولة الجاهزة للانقضاض على كلّ شيء يتحرّك، ولكمه وركله حتّى الموت، وانتهاء بالأسلحة المتطوّرة (ذات الألوان الزاهية) التي تمحو أمما وقبائل في لمح البصر، وفي حضور الطفل وأمّه وأبيه وجميع أفراد سلالته أحيانا، ولا من يحرّك ساكنا أو يدين الجريمة، فكأنّ الأمر أمسى قدرا مبرما وقضاء محتوما.. لا مناص منه...... حقيقة لا أنظر إلى مستقبل الأجيال القادمة بعين التفاؤل، فالبرمجة مُحكمة والمشروع يُنجز بإتقان وعلى قدم وساق، ومن المحتمل جدّا أن تكون مقرّات الشركات الخاصة بإنتاج أفلام الكرتون في الحدائق الخلفية لمختبرات أسلحة الدمار الشامل، ولا عجب في ذلك فنفس العقل يقف وراء إنتاج بضائع الكبار والصغار...، هنيئا إذن "للعمّ سام" وأتباعه وشركائه فقريبا سيحتاج أبنائي إلى أسلحة فتّاكة للعب مع أبناء الجيران وربّما لتأديبهم.. والله أعلم..

آخر القول:

" هاتها

كشف الغاب أوراقه كلّها

وعوى الذئب فيَّ وفي كلّ من مرّ بي

ويلنا من تدحرجنا في جحيم الأنا

ويلنا من حديث الأنا مع مرآتها

هاتها

كذبٌ كلّ ما قلته عن أخي

إنّه الذئب في كلّ عصر ومصر

ولست أبرّأ نفسي من الجوعِ

حتّى وإنْ لمْ أمدّ يديّ إلى طبق واحد في ولائم أمّي وجاراتها"

عاش الضحك

وإن كان مرّا

فكّرت مليّا قبل أن أطلق قلمي في بياض الورقة لأتمكّن من مصافحتكم، وراودتني هواجس وأفكار شتّى، عرضت نفسها موضوعا لمقالتي، لكن من حسن حظّكم وسوء حظّها أنّ سوداويّة بغيضة تلبّست بها وأشجانا رهيبة اندسّت فيها، فطردتها جميعا ودون استثناء ولسان حالي يردّد:" يكفي المواطن العربي ما يتخبّط فيه يوميّا من قرف وخوف وقلق"، وها إنّي أقترح عليكم جولة في رفقة الضحك رأفة بأنفسنا وتفاديا لانفجار رؤوسنا ممّا تستوعبه على مدار الساعة من عجائب وغرائب وممّا تتجرّعه أعيننا من دماء وأشلاء وخراب عميم.... أيّها المتعبون.. أنصتوا، إنّ الضحك يتهيّأ لعرض ما تيسّر من ذاكرتي:

ــ لنبدأ من ثلاثينات القرن الماضي، وتحديدا من ردّ أحد المتعصّبين على المصلح التونسي الطاهر الحدّاد، إذ ذيّل ردّه القاسي بهذه الجملة " هذه دفعة على الحساب حتّى أقرأ الكتاب"، لست بصدد الانحياز إلى أحد المتخاصميْن، بل أنا أضحك فقط من عالم يجد الجرأة للردّ على مؤلّف كتاب لم يطّلع عليه، فالرجاء من الجميع أن نقرأ لبعضنا البعض قبل أن نطلق الحقد على من يخالفوننا الرأي دون دراية بما حبّروه، فنُضحك الخلق منّا وإن كنّا مع ذلك نورث أحفادنا فرصا أخرى للضحك أو الابتسام في طقسنا العربي المغلق على الأنا المتورّمة العارفة لكلّ شيء....

ـ نعود إلى "الآن وهنا" كما يقول أحد الشعراء التونسيين، ثمّة أديبة مخضرمة، ظنّت الثورة حفل زفاف جماعي، فلم تبخل علينا بتوزيع صور مشاركاتها في كلّ ازدحام، أمّا الأطباق التي استعملتها لتوزيع الصور اللذيذة، فهي صفحات "الفيسبوك"..، كيف فاتني أن أقترح عليها تسميّة صورها بمرطّبات الثورة..

ـ لنظلّ في العالم الافتراضي، فقد أمسى لدينا اليوم رؤساء بعدد أفراد شعوبنا، والأمر ليس لغزا، بل هو في غاية البساطة، وقد تحقّق بفضل: جهاز كمبيوتر، وكرسيّ أو سرير دافئ، مع لمجة خفيفة على يسار الرئيس، وبعض الفواكه الجافة على يمينه، إلى جانب صرّة من الأفكار العظيمة والقرارات الخطيرة المصيريّة التي يلقيها الرئيس الواحد المتعدّد على الشعب الافتراضي المحتشد في المواقع الالكترونية..، يا جماعة لدينا رؤساء لا ينامون بتاتا...

ـ لنتّفق نهائيّا: كلّ يساريّ هو بالضرورة غلام كافر مائع شاذّ حليف الغرب الشيطاني ولا حرمة لعرضه أو دمه، وكلّ يمينيّ هو بداهةً جاهل متخلّف متعصّب مكبوت تابع لقوى الظلام ويجب محوه من وجه الأرض، .. يا قوم اثبتوا في الوسط، فأخطر وأنكر التهم الموجّهة لأهل الوسط أنّهم جبناء، وهي، كما ترون، تهمة بسيطة، تهمة محبّبة في زمن التكفير والتخوين.. والحريّة...

ـ يصرّ البعض على دعوتنا إلى التوجّه فورا إلى فلسطين المغتصبة لتحريرها من قبضة الصهيونية القذرة، وهذا خطاب جميل لا يعارضه كلّ شريف، شرط أن يكون لنا معمل واحد في الوطن العربي الواحد.. هههههه..، ينتج إبرة واحدة لنفقأ بها عين الكيان الغاصب...، هل سنهزم الأعداء بالشعر الحماسي والخطب الناريّة... كما دأبنا على ذلك من قرون.. لم لا؟ لعلّني معتوه...

ـ على فكرة، كان جسد المرأة وما يزال شغلنا الشاغل، ومعطّل طاقاتنا العلميّة والفكريّة والإبداعيّة.. إلخ، ومشوّش ثوراتنا القديمة والحديثة، ولم يجرأ أحد على إلقاء المرأة وجسدها في البحر الأبيض المتوسّط، وتحديدا في المياه الدوليّة..، ليحرّرنا نهائيّا من هذا القيد العظيم الذي منعنا منذ كنّا، من التقدّم والنماء والازدهار والتفكير خاصة....

ـ يؤمن كلّ الإخوة الفرقاء أنّهم منتصرون إن شبّت فينا الفتنة ومع ذلك لا يبتسمون إلاّ لماما، وحدها الفتنة الناهضة توّا من مخدعها.. تضحك ملء شدقيها.. أوووووووف، حتّى الضحك لم يسلم من الحزن هذا المساء رغم استجارته بمقالة، خلتها مخصّصة للضحك فقط.

آخر القول:

"أين ضيّعتَ وجهك؟

في غابة الخبز أم في قفار الكتابةْ؟

وإلى أين تمضي بك الأبجديّة والحزن

يا طائرا ظنّت الريح أنّه تاب؟

وما تبت... لكنّها هدنة

كان لابدّ منها لتبكي قليلا على ما فقدت

لتنزف حبر الكتابةْ "

أوراق نقديّة جديدة

طبعا استبشرت بالثورة ككلّ معارفي وأقاربي وشاركت فيها بما استطعت، وقد قدّمت دجاجة مكتنزة قربانا لها ووليمة لأهلي ومن جاورهم، وذاك أقصى ما يمكن أن أقدّمه من تضحيات جسيمة على حساب راتبي الشهريّ البائس، ومنذ تلك الحفلة الباذخة، وأنا أتابع نشرات الأخبار لعلّ أحدا ما يعلن عن الزيادة في الأجور أو كبح جموح أسعار الحياة ومشتقاتها، لكنّ مذيعي الأخبار والمذيعات كذلك لم يكفّوا يوما واحدا عن السباحة في مجاري الدم والهمّ، كما أنّ العملة الجديدة المتداولة منذ قيام الثورة لم يقبلها منّي غريب ولا حتّى قريب، ولا أستثني بائع الخضر جليسي الدائم في مقهى الحيّ، فقد رمقني بنظرة رهيبة وكاد أن يرجمني بحزمة البصل التي كانت في متناول يده، لولا غلاؤها وندرتها في هذه الأيام الحرجة، لست أدري ما دهاه ليتسلّق قمّة الغضب بتلك الطريقة المباغتة، وكلّ ما في الأمر أنّني، بعد اقتنائي من دكانه لبعض حاجيات الأسرة، دفعت له ثمن ما اشتريته وطلبت الباقي، .. يا إلاهي سلّمته ورقة نقديّة من فئة " ثورة ـ حريّة ـ كرامة وطنيّة "، ولم يرجع لي بقيّة الصرف، ألا تكفي تلك الورقة النقديّة الجديدة ذات القيمة العالية لملء قفة العيال ببعض الخضر؟، ولم لا إضافة بعض الغلال لإعادة العلاقة الطبيعية بينها وبين الأطفال؟، صراحة إذا كانت هذه الورقة المذكورة تثير سخط أعزّ أصحابي، بائع الخضر النذل، فلا خير فيها ولا في من روّجها في أحيائنا الشعبية الفقيرة مذ كان الفقر....

كثيرة هي الأوراق الجديدة التي تمّ الاتفاق على صلوحيتها مؤخّرا، منها مثلا: "بالروح بالدم نفديك يا وطن" أو "لا شرقية لا غربيّة.. ثورة ثورة وطنيّة" أو "خبز

وماء والطغيان لا"، مع العلم أنّ الورقة الأخيرة سبق لي أن قدّمتها إلى جاري الطيّب صاحب مخبزة الحومة، فكاد يلقي بي في الفرن، وأنا لم أفهم إلى حدّ الساعة سبب انقلابه المفاجئ عليّ، وتطاير الشرر العجيب من فمه المفتوح مثل باب من أبواب جهنّم.. والعياذ بالله...

ثمّة ورقة أخرى كم سعدت بها وظننت أنّها ستحلّ جميع مشاكلي وتطرد الخصاصة من بيتي الذي يصرّ البعض على تشبيهه بالكوخ الحقير، هذه الورقة هي طبعا " نموت نموت ويحيا الوطن "، والغريب أنّنا متنا أو نكاد ولم يقبل منّا أحد هذه الورقة السحرية، ثمّ لسائل أن يسأل: " هل في استطاعة الوطن أن يحيا إذا مات المواطن مختنقا تحت ضغط الحاجة ومتطلّبات الحياة اللئيمة.... . صراحة إنّ هذه الأوراق الجديدة جميلة ومثيرة لشهيّة العيش، لكنّها للأسف الشديد لا تغني من جوع، علما أنّ السادة باعة الشعارات الجاثمين في اليمين واليسار، الذين اتّفقوا على ترويجها، لم يقبلوها منّي (أنا أبو العيال)، وأجزم أنّ دكاكينهم الحزبيّة المتراصة، لم تلق في القفّة لقمة واحدة، ولا أخفي عن أحد منهم أنّ بوادر ثورة عظيمة، بدأت تتشكّل في عشّي الآمن، تقودها زوجتي الناجية من الايدولوجيا، ويشارك فيها بحماس منقطع النظير أبنائي المنقسمون إلى يمينيين ويساريين، لكنّهم متّحدون ضدّي أنا المواطن البسيط الحزين الموشك على الانضمام إلى ثوّار بيتي، لولا تمسّكي جيّدا بورقة أخيرة:"الصبر مفتاح الجنون".. أجرني يا جنون....

آخر القول:

أبو العيال

صرّح الباب: عاد المحارب ليستسلم للأهل

هتف الطفل الأصغر: وصل موزّع الحلوى

وتسلّق البدلة مستعينا بربطة العنق

أمّا الأكبر فغمغم: أريد قسطي من غنيمة اليوم

وأخفى خلف ظهره علبة كبريت ورغبات مشابهة

أسرّت الزوجة لمرآة الرواق: صدقتِ

أنا أجمل الممرّضات

قد يعرض الشاعر جراحه لنساء المدينة

لكنّه لا يبيت إلاّ في ضمادي

ها إنّه يبذّر ذاته على فراخي

ويتفقّدني بعينيه كمن يتحسّس دفتر ادّخاره.

همهمت الأمّ: هادنوا القتيل قليلا

تذمّر السرير: إلى متى ستخطئ هذه الجثّة قبرها؟"

عن السيف والوردة

العالم مبنيّ على صراع الإرادات، هكذا كان وهكذا سيكون، هذا رأي أوافق عليه دون تلعثم أو ارتباك، خاصة في ظلّ ما تشهده الساحة السياسية العربية هذه الأيام، من تجاذبات قويّة وصدامات شديدة بين يمين ويسار، لكنّي مع ذلك أعتبر أنّ القول بحتميّة الصراع لا يجب أن يغيّب " الإرادات الليّنة " إن جاز القول، فالدعوة إلى الوسطيّة والاعتدال مثلا، هي إرادة لا غبار ولا غراب عليها، وإن لم تتسلّح بغير رحابة الصدر والصبر الجميل، وبمعنى آخر ثمّة من يستخدم في صراعنا الحديث حجّة القوّة وثمّة من يلوذ بقوّة الحجّة، وأنا من التابعين للصفّ الثاني وإن طغى صوت الصفّ الأوّل على المشهد السياسي في الأقطار العربية، شخصيّا لا تسمح لي ثقافتي ومستوى تحضّري بإرغام خلق الله على اعتناق مبادئي ومعتقداتي، وليس في هذا ضعف للإرادة، بل هي القوّة بعينها، قوّة الفكر الذي لولاه لما استطاعت الإنسانيّة تحقيق كلّ هذه المكاسب الحضارية، العلميّة منها والأخلاقيّة..، يشهد التاريخ على انتصار السيف على الوردة آلاف المرّات، لكن هل نجح السيف في بسط سلطانه على الإنسان إلى ما لا نهاية؟، لم يحدث هذا ولن يحدث، إذ أنّ الإنسان وببساطة شديدة كائن حرّ، وإن استكان فترة من الزمن، الإنسان مارد عظيم رغم هشاشته الجسديّة، ولنا أن نسأل كلّ الجبابرة الذين حاولوا تدجينه على مرّ العصور.... تطرّقت اليوم إلى هذا الموضوع، بعد متابعة يوميّة دامت شهورا لما يعتمل داخل الثورات العربيّة، وبعد ذهولي من تطرّف بعض الأطراف في أقصى اليمين واليسار كذلك، فمن العجب العجاب ونحن في مفتتح القرن الواحد والعشرين أن يؤمن البعض منّا

بإمكانية فرض آرائهم على الآخرين، بل الأغرب أنّهم تناسوا أنّ هذه الشعوب ثارت منذ فترة زمنية قصيرة على أنظمة شموليّة، ألجمت كلّ الأصوات المعارضة لها، صراحة ثمّة منّا من أصيبوا بمرض فقدان الذاكرة، وأعتقد أنّهم يقترفون خطأ شنيعا في حقّ شعوبهم التي قدّمت الغالي والنفيس، الدم والروح من أجل حريّة التفكير والتعبير والعيش بكرامة، لذا أرى أنّ كلّ إرادة تتكّئ اليوم على القوّة ستواجه ما لا تتوقّعه أبدا، وشخصيّا أرجو أن نتفادى الاصطدام الأهليّ، إذ لا رابح فيه إلاّ أعداء الأمّة... لست متشائما البتّة رغم بعض الظواهر الغريبة التي بدأت تتّضح في مجتمعاتنا، إيمانا منّي بأنّ الأغلبيّة الساحقة معتدلة المواقف والمعتقدات، وتميل إلى التعايش السلميّ، وتعي تمام الوعي أنّ معركتنا ليست مع بعضنا البعض، بل هي ضدّ الأميّة والتعصّب وإقصاء الآخر، ومن المضحكات المبكيات أنّ بعض شبابنا المتحمّسين يرفضون مجرّد الاستماع إلى كلّ رأي مخالف لأفكارهم.. وهذا خطر كبير يهدّدهم هم قبل غيرهم، فمن يمارس الإقصاء، لابدّ أن يكتوي بناره يوما ما، والسبب بسيط: لقد ساهم في تكريسه داخل مجتمعه وبرّر القيام به تحت شعار من الشعارات الكثيرة، يا أهلي أينما كنتم، قدرنا الجميل أن نتكاتف في وجه المتربّصين بأمّتنا من كلّ جانب، فلا تفوّتوا هذه الفرصة التاريخيّة لكي نثبت للعالم أنّنا أمّة حضارة وعلم ومحبّة وتسامح..، أمّا الإقصاء وفرض اللون الواحد والفكر الواحد والصوت الواحد.. فلا مجال له في عصرنا الحديث..، لقد انتفضنا معا في وجه السيف فتعالوا نَسق في حديقتنا أكثر من وردة....

آخر القول:

" لا شيء سوى كُتل تتصادم في أسواق اللذاتْ

ذا ما تبصره اليوم وما ستراه غدا

إن أمهلك الموت ولم يفقأ عينيك سراب أو حشراتْ

ذا ما ستراه حتّى تتحوّل حرّيقا في مقبرة الغرباءْ

ذا ما أدركه قابيل فدشّن بحر الدمْ

وغزا مدنا ونساءْ

لا شيء سوى أجساد مرتزقةْ

تتناحر في ملكوت الرغباتْ

رايات شتّى سوداء وخضراء ورقطاء

وأقنعة طينيّةْ تتعانق تحت الشمس ولا تتفتّتُ

لا تمحوها الريح ولا الماءْ

لا تنزعها إلاّ الكلماتْ بأظافرها المدماةْ "

فشل المشروع البائس

بحكم تنفّسي للهواء التونسي وبفضل مواكبتي للحراك الاجتماعي في جلّ الأقطار العربية من خلال تواصلي مع العديد من المثقفين والأدباء العرب المنتشرين كاللؤلؤ في الرمال المتحركة والحقول الملغّمة " بالثورة ومشتقاتها "، يمكنني القول إنّ الشعوب العربية نجحت وإن بثمن باهظ في امتصاص الصدمة الأولى لهذا الزلزال التاريخي الذي طال كلّ شيء تقريبا، وأفشى فينا فوضى غير مسبوقة، فوضى عارمة كاسحة، اقتحمت بيوتنا ومؤسساتنا وما تزال مدسوسة في تفاصيل حياتنا اليوميّة وإن بنسب أقلّ ضراوة وخطورة.

نعم لقد استشرى الاضطراب والارتباك والشلل في خلايا مجتمعاتنا واستحوذ التعصّب والتطرّف على نصيب " لا بأس به " من طاقاتنا الشبابيّة خاصة، لكنّ المشروع الرهيب لم يفلح في التحقّق تماما، كيف ذلك؟، إليكم الجواب حتّى لا تظنّوا أنّ سرياليّة الواقع ذهبت بعقلي:

أوّلا: ظاهر الأمر لمن بهم يأس مزمن من الحياة أنّ مجتمعاتنا المدنيّة خضعت تماما للغزاة الجدد المنبثقين من ترابنا وأسرنا وسلالتنا، الرافعين لراية " أسلمة المسلمين " والمصرّين بصفاقة غريبة عجيبة على فصلنا عن مقتضيات عصرنا ومنعنا من التواصل مع الحضارات المحيطة بنا من كلّ جانب، وهي روافد عظيمة وضرورية لتطوّرنا الفكري والعلمي والإبداعي، هذا المشروع البائس الذي لا يخلو من حماسة دينيّة مغشوشة بدأ يتقهقر تدريجيّا وينحدر من فضاءات كثيرة وينحسر في عقول بعض المغرّر بهم، والدليل على صحّة قولي ثبات عامة الناس في نمط الحياة المعهودة وتشبّث الأغلبية الساحقة بنمط العيش العصري في السلوك واللباس

والتواصل الاجتماعي بما في ذلك من طقوس للأعراس والأعياد ومختلف العلاقات بين أفراد المجتمع نساء ورجالا وأقارب وضيوفا وزملاء في العمل وعشّاقا متحلّقين حول فناجين القهوة وكؤوس الشاي وسوائل أخرى يطول عدّها.. .، ما تزال الحياة كما نعرفها متاحة للجميع، لا إقصاء ولا كفّار ولا عورات، كلّنا جسم اجتماعيّ واحد يتماثل للشفاء من زكام عنيف.

ثانيا: يبدو للأعشى أنّ شريحة المثقفين والفنّانين والمبدعين قد ضاعفت من انكماشها ولاذت بنخبويتها هروبا من الزحف الظلامي، لكنّ الحقيقة التي بدأت تتجلّى يوما إثر آخر أنّ الحركة الثقافية الابداعية العربية عانت ما عاناه مجتمعها بمختلف شرائحه، ولم يكن خفوتها الظرفيّ تهرّبا من " الأميّة المقدّسة الحديثة " ونأيا بالنفس عن سكّين الجهل والتكفير والتخوين، بل كان لابدّ من الانحسار قليلا في ذروة الفوضى وفورة الأشباه والنكرات والباحثين عن مواقع ليسوا أهلا لها، لقد كان الجزر حتميّا، والجزر ليس انكفاء بل حركة أصيلة تنأى بالبحر عن الزبد، وها إنّ الحراك الثقافيّ يستجمع طاقاته من جديد في كلّ الأقطار التي طالها الزلزال، أعتقد جازما أنّ الإنسان العربي، مثقفا كان أو مواطنا بسيطا، له من المناعة الإيمانية والحصانة المعرفية والخبرة الاجتماعية ما يسمح له بمواجهة كلّ مشروع رجعيّ يطمح إلى تحويل وجهة ثورته من درب الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية إلى نفق الكراهية والتخلّف والمزايدات الايدولوجية السمجة.

ثالثا: لم تزل حبيبتي تحبّ زفراتي وتطرب لها، لم تكفّرني ولم تخوّني ولم... تفتح باب الوصال بعد.

أسئلة خالية

من البراءة ومشتقّاتها

من ايجابيات هذا الزلزال الرهيب الذي خلخل الوطن العربي ودكّ مسلّمات كثيرة، أنّه ألقانا جميعا في هوّة أسئلة حارقة، وبصفتي مواطنا عربيّا إلى حدّ كتابة هذه الأسطر، أقرّ أنّني خاضع منذ اندلاع " الحريق العربيّ " لسطوة هواجس متوحّشة وأسئلة شرسة، تحالفت مع طيف حبيبتي لتوفّر لي طقسا زاخرا بالشرود والحيرة والأرق، ومن ضمن الأسئلة المريعة التي احتلّتني أذكر على سبيل الذكر لا الحصر ما يلي:

ـ هل تتيح القرابة الدمويّة أو الجيرة أو المشاركة في وطن واحد أن يفرض أحدنا على كلّ ما حوله ومن حوله من ميّت وحيّ العيش وفق أهوائه وميولاته ونزواته أيضا، وأن يُجبر جاره مثلا على التطابق معه في الهيئة والسلوك والمعتقدات إلى حدّ التماهي فيه، فيصبح جاره نسخة من أناه المتضخّمة المريضة الرافضة لكلّ من يخالفها الرأي والراغبة بقوّة وصفاقة في صبغ العالم بلونها وتشكيله حسب شكلها وتأثيثه بأفكارها وخرافاتها وحتّى هلوستها وما يصدر عنها؟

إن كان الجواب بالإيجاب فيا خيبة مسعى الشهداء والثكالى والأرامل والأيتام وما لا يُحصى من الجرحى والمعطوبين عضويّا ونفسيّا، فمن الجور حقيقة أن تثمر هذه الثورة أو الفورة إن شئتم، هذا السؤال الذي تجاوزه العقل الغربي والإنساني عموما منذ الثورة الفرنسية العظيمة وما نتج عنها من طفرة هائلة في الحريّات ومن

مساحات مفتوحة للتعدّد والتنوّع والتنافس المعرفيّ والإبداعيّ، وقد تعمّدت افتتاح هذه " المقالة الصرخة " بسؤال المواطنة ومقتضياتها لكي لا ننسى أبدا سرياليّة الوضع الاجتماعي الذي نتخبّط فيه منذ قرون ولم تفلح دماء طوابير الشهداء وتضحيات عشرات الآلاف من سلالتنا المذهولة المذهلة في تحقيق صدمة الحداثة والمعاصرة، لم تنجح عشرات الأجيال المتتالية في خلخلة الفكر العربيّ وتفكيكه وإعادة صياغة واقع اجتماعي وسياسي يليق بأمّة " اقرأ "، وبشعوب انتفضت ضدّ الاستعمار والطغيان مرّات عديدة طوال عقود من التضحيات والآلام والأشجان.

ـ ثمّة سؤال آخر يهيمن على دماغي المتصدّع منذ سنوات عديدة قطعتها متشرّدا في الساحة الأدبيّة العربيّة، والسؤال هو هل أنّ المبدع العربيّ مجبر على التواصل اليوميّ مع مبدعي وطنه ومثقّفيه، هل هو مضطرّ إلى تخصيص حياته الوحيدة للجلوس إليهم في أركان المقاهي وزوايا الحانات وإهدار عمره اليتيم في مجاملة زيد ومصافحة عمر والردّ على رسائل مبدعي الشبكة العنكبوتية، إضافة طبعا إلى الأخذ بخاطر النطيحة والعرجاء وما خلّف الجهل، لكي يقال أنّه كائن جميل، متواضع ودمث الأخلاق، تُرى هل سيُشفق التاريخ على مبدع فتح عزلته المقدّسة لكلّ من هبّ ودبّ بدعوى التواضع لزملائه في الإبداع، ومتى كان الإبداع شراكة مع الآخرين، أعتقد أنّه أكثر الأفعال الإنسانيّة خصوصيّة وتفرّدا لذا ليس على أيّ مبدع إهدار عمره في مجالس الثرثرة والنميمة بحجّة التواصل مع أمثاله، فلا مثيل له إن كان مبدعا حقّا.

ـ سؤال ثالث وأخير حتّى أترك كلّ فرد منكم لهواجسه الخاصة ومشاغله المتهافتة عليه :

" يا برد الشارع... يا قلب الشرطيّْ

يا هذا القنديل التائه مثلي في ملكوت الليل

لماذا يأتي الموت

ولا تأتي قاتلتي مرّةْ؟

ولماذا لا تسهر إلاّ الشرطة والشعراء

في هذي الأرض الصفراء.. أو الزرقاء.. أو الخضراءْ؟ "

حلقة جديدة

من مسلسل اللعب

لنهدأ قليلا رغم صعوبة ذلك.

لنهدأ ولننظر إلى هذه الفوضى العارمة مـن زاويـة أشـدّ عمقـا وأقـرب إلى ماهيـة الوجـود الإنساني بعيدا عن الولولة والتباكي..، أليس ما يحدث لنا شوطا آخر من سباقنا المحموم نحـو اللـذّة والمكسب والسلطة والجاه، سباقنا العنيف الحـماسيّ في ملاعـب الحيـاة المزدحمـة بأفعـال الـصراع الأبديّ بين الناس في كلّ مكان وزمان وبين مختلف أشكال الحياة الأخرى في الأرض والبحر والفضاء.

إنّ هوس الحياة باللعب متواصل في وتيرة ترتفع سنة إثر أخرى ولا رادّ لهذا الهوس الجامح إلاّ فناء الجنس الإنـسانيّ والأرض ومـا عليهـا ومـا تحتهـا مـن حيـوان ونبـات، هـذه هـي الحقيقـة الساطعة الدامغة التي يتعمّد بعض الرومنسين تجاهلها وأعتقد أنّ الأوان قـد حـان للاعـتراف بـأنّ الإنسان خاصة لاعب شغوف لا يكلّ ولا يملّ من اللعب.

فليحيا اللعب إذن.

يحيا اللعب بالكلمات والمعاني في ما اتّفقنا على تسميته " الحذلقة".

يحيا اللعب بالحلال والحرام في مدار الفتاوى الغريبة العجيبة المتناغمة دائمـا مـع مـصالح جهة الإفتاء.

يحيا اللعب بالأوطان ومصائر الشعوب باسم الربيع العربيّ المثير للريبة والشكّ.

يحيا اللعب بشبابنا المرسل إلى بؤر الفتن والحروب تحت راية الإسلام البريء من كلّ دم.

يحيا اللعب بكلّ شيء حيّ وميّت، أليس في نبش قبور الأولياء مثلا لعب جنونيّ بإرثنا الدينيّ والعاطفيّ والإنسانيّ عموما؟، لست بصدد تمييع مأساتنا الحديثة الجاثمة علينا دون استثناء قطر عربيّ واحد، بل أحاول أن أتصالح مع الطفل المشاغب الكامن في الإنسان، ذلك الطفل الذي يقيم قيامة الدنيا وضواحيها احتجاجا على رسم مركون في معرض مهجور بتعلّة أنّ لوحة ما تسيء إلى المقدّس، ولا يرى حرجا في تنظيم رحلات جنسيّة إلى سوريا للقيام بفرض " جهاد النكاح ".

نعم هكذا أرى اقتتال الإخوة الأعداء اليوم، أراه حلقة جديدة من حلقات المسلسل الأطول في تاريخ الإنسانيّة، وهو بطبيعة الحال مسلسل اللعب والعبث بكلّ شيء وفي جميع مجالات الحياة، ليس عيبا أن يصارح المرء نفسه ويتصالح مع طبيعة العالم المرتكزة أساسا على حتميّة الصراع واللعب في مفهومه العميق فلا شيء يتحرّك خارج دائرة التنازع والتجاذب والتنافس للفوز بنصيب أوفر من مغانم الحياة ولقد لجأت الإنسانيّة طوال مسيرتها الطويلة إلى الفنّ والأدب والدين والفلسفة لإضفاء مسحة قدسيّة أو إبداعيّة على لعب الخلق ببعضه البعض منذ البدء، منذ عبث قابيل بدم أخيه إلى يوم الناس هذا، وإهدار الثوّار لدماء إخوانهم بتعلّة الدفاع عن أهداف الثورة.

هو اللعب إذن، الأرض ملعبنا ولعبتنا ولاعب مغلوب على أمره، وليس في وسع أحد أن يوقف اللعبة، ليس في وسعنا سوى التخفيف من حدّة تصادمنا ومحاولة كبح جماح الأنا المتضّخمة... والله المستعان.

آخر القول:

إن لاح نجمك في السماءْ

وهوتْ نجومي كلّها

وركضتَ تبحث عن دمي المطلوبِ

أقتلني بحُبٌ

كم فرّقت بين الأحبّة فكرة

ولكم تزاحم بالمناكب توأمانْ

ولكم تبدّد في الولادة من جنينْ

خائن من لم يجنّ

إطلالة سريعة على قنـواتهم التلفزيّـة تؤكّـد لنـا فداحـة الهـوّة الحـضاريّة الفاصـلة بيننـا، شعوب تعمل تبتكر ترقص تشدو تتظاهر سلميّا، شعوب تقيم المهرجانات الفنيّـة وتحتفـي بتراثهـا بشكل حداثيّ لا انفصام فيه ولا انبتات ولا تحجّر كذلك، شعوب متـصالحة مـع ماضـيها وحاضرهـا ومستقبلها، تعيش الحريّة، تتنفّسها ولا ترى في الاخـتلاف تعلّـة لـسفك الـدم، شـعوب ترسـل إلينـا حكوماتها الأسلحة ليقتل الأخ أخاه والابن أباه بدعوى الدفاع عن الهويّة والديمقراطيّـة وغـير ذلـك من حجج القتل الجماعي.

تعالوا الآن نطلّ على عيّنات من كابوسنا الرهيب:

ـ شاب يفتح صدر قتيله ويقتلع قلبه ثمّ يقضمه، وقد سـجّلنا ذلـك في ذاكرتنـا الجماعيّـة وواصلنا الحياة

ـ عرب مسلمون يسحلون عربا مسلمين في شوارعنا المذهولة، الدم في التراب والمجاري ولا حياة لضمائرنا، استنكرنا الأمر وعدنا إلى المقاهي والنرجيلة والمسلسلات التركية

ـ دول عربيّة تدفع العالم دفعا لضرب سـوريا وتتعهّـد بتغطيـة تكـاليف المجـزرة، سـمعنا ورأينا وقرأنا الخبر ثمّ انزوى كلّ واحد منّا في ركنه متفقّدا أبنائـه بعنايـة فائقـة ومـستعدّا لمتابعـة المقابلة الحاسمة بين برشلونة وريال مدريد

ـ بناتنا يمارسن " جهاد النكاح " في أكثر من مزبلة ولا من يحرّك ساكنا، تنكّرنا حتّى للنخوة والشرف والكرامة، منّا من ندّد بهذا " الزنا المقدّس" وهو في طريقه إلى شـلّة الأنـس وكـأنّ شـيئا لم يكن

ـ أطنان من الأسلحة متوفّرة لكلّ الشرائح الاجتماعيّـة، كأنّنـا في مهرجـان للقتـل والترويـع بشهادة كلّ الحكومات دون استثناء، بل منها من ثبت تورّطها في تسهيل عمليّات إدخـال الأسـلحة إلى حرم الوطن، ومع ذلك ظلّت الأغلبيّة الساحقة من الشعب العربي كامنة في بيوتها ظنّا منهـا أنّ الحياد سيوفّر لها فرصة للنجاة، والأهمّ من ذلك تواصل قدرة الأغلبية على إطلاق النكت والـضحك عاليا ولا حرج على أحد.

ـ شهداؤنا يمسكوننا من رقابنا صـارخين: كيـف حـوّلتم تـضحياتنا إلى سـجن كبـير للأحـرار جميعهم ولكلّ نفَس معارض أو رأي مخالف؟، كيف تجرّأتم على تكفير أهلنا وتخوين من نحبّ ؟، كيف لم تجنّوا بعد وأنتم تعاينون دوس الأقدام الغريبة على دمائنا؟

ـ عواصم تنهار بأيدي أبنائها دون أن يرفّ لهم جفن، قبائل وجماعـات وعـصابات تـدّعي امتلاك الحقيقة المطلقة ولا تتحرّج من الكشف عن رغبتها الملحة في إقصاء الجميـع دون اسـتثناء، لكأنّ الأوطان أمست إقطاعيّتهم الخاصة وهذا هو العجب العجاب خصوصا بعد انـدلاع أكـثر مـن ثورة منادية بالحريّة والكرامة والعدالة الاجتماعيّة، يحدث كلّ هذا ولم يجنّ منّـا إلاّ بعـض عـشاق الوطن، لذا وجب الاعتراف اليوم بالحقيقة التالية: "خائن من لم يجنّ "

آخر القول:

" رجعتُ يا حبّي فليني

كي أحقّق ما أريد

وما أريد سوى الجنونِ

أريد أن تتجسّد الكلمات حين أقولها

لأقود جيش المفردات العابسات إلى خصومي.

رغبتي في الفعل عاصفة وروحي وردة مقطوفة

والأبجديّة لا تعي ما يعتريني "

ما الذي ألمّ بخير أمّة

أخرجت للناس؟

ثمّة من لم يفهم بعد أنّ الشعب العربي متوجّه إلى الحريّة كلّفه ذلك ما كلّفه، فالحقيقة الغائبة عن بعض أبناء الوطن الواحد أنّ هذا الزلزال الاجتماعي السياسي (بصرف النظر عن الاختلاف في تسميته) لن يفضي حتميّا إلاّ إلى فرض التنوّع والتعدّد بالتي هي أحسن، أو بالصدام إن اضطرّ الشعب العربي إلى ذلك مثلما يحدث الآن في أكثر من قطر، شخصيا دعوت طيلة سنتين كلّ التيارات العقائدية والفكرية إلى ضرورة التعايش وقبول الآخر ولن أكفّ عن الصراخ في أصقاع هذا القفر المتشبّه بالمجتمع المدنيّ، هذا إيماني وقدري ولن أيأس من أحد، بداية من المراهق الساكن قبالة بيتي والمتوجّس من كلّ الشعب التونسي خيفة على الإسلام (عقيدة الشعب التونسي حسب علمي) ومرورا بصديقي الكاتب العربي المتمترس في أقصى اليسار والداعي صباحا مساء إلى إقصاء كلّ نفس يميني بصفاقة رهيبة.

قدرنا العيش المشترك بالتوافق على ذلك أو بإهدار أنهار الدماء، ومن الحكمة والنباهة أيضا أن نختار الخيار الأوّل، يكفي هذه الشعوب الجائعة المهمّشة المغبونة ما عانته طوال عقود كئيبة حزينة، ثمّ ألا ترون مثلا ما يحدث في مصر وسوريا ؟، ألا تبصرون حجم الدمار الذي لحق بالمدن والقرى السورية بصرف النظر عن خلفياتكم الايدولوجية، يا ناس يا قوم، يا أهلي إنّ الفتنة أشدّ من القتل، تشرّدت نساؤنا في القفار واغتصبت بناتنا باسم " جهاد النكاح " وحماية اللاجئات، سقط أبناؤنا في ذروة بهائهم وعطائهم في مجازر تسرّ العدوّ وتحرق أكباد أمّهاتنا، رأينا

العجب العجاب ونفر البعض منّا من العروبة والإسلام بعد أن وقع تشويههما بعناية فائقة، أمسى الناس سكارى وما هم بسكارى، تعطّلت الحياة وجاع الرضيع في حضن أمّه الشريدة المقهورة، أحتاج إلى أطنان من الورق لعلّي ألخّص هول ما يحدث لنا، لقد عشنا سويّا متناغمين بشكل ما ومتحالفين على الطغاة سرّا وجهرا فكيف نحوّل ثوراتنا إلى بحار من الدم وجبال من البيوت والمؤسسات المهدّمة؟، أليس فينا عقلاء يضعون حدّا لهذه الطامة الكبرى التي لا وصف يرقى لها؟، لقد تفشّت الفرقة والضغينة في نسيجنا المجتمعي واندسّت في الأسرة الواحدة، ابن يكفّر أباه وزوج يطلّق أمّ أطفاله لأنّها من "العرش" المتخاصم مع قبيلته، ما الذي ألمّ بنا يا خير أمّة أخرجت للناس؟، ألسنا الرحماء المشهورين عبر الأزمان بالإيثار والرأفة والكرم والحكمة والعدل؟ والله ثمّ والله لن ألقي المنديل، لن أيأس من أمّة كان لي شرف زيارة جلّ أقطارها والعيش مع مختلف شرائحها الاجتماعية، أكاد أصرخ في الشوارع وفي بياض أوراقي: "لسنا نحن.. ثمّة خدعة ما.. ثمّة خلل أصاب كلّ شيء جميل وبديع فينا "، بي شجن تعرفونه جيّدا فهو كامن فيكم جميعا بإسلامييكم ويسارييكم والمحايدين الأبديين، ولكنّي على ثقة من انتصار الحكمة وانصياع المتشدّدين منّا إلى إرادة الحياة وحركة التاريخ، العالم موغل في درب التحرّر والتعدّد ولا شيء سيوقفه، هكذا أرى ولست ضدّ جهة بعينها، أنا ضدّ من يرفض الآخر تحت أيّ تعليل، تعالوا إلى كلمة سواء توحّد ما تفرّق وتضمّد جراحاتنا الكثيرة، اقتربوا وتثبّتوا في بعضكم البعض لتفقهوا أنّكم إخوة ورفاق درب أيها الأهل والأحبّة.

آخر القول :

" ينمو على مهل حبيبي

ابنة الجيران ترقبه وتنمو

والهوى ينمو

نهارا في مربّع تربة البايات

حذو الـلـه والموتى

وليلا تحت فانوس الزقاقِ

أمام شُبّاكي تماما.

لن أسلّم للظلام العاشقيْنِ

ولن يُعاين دمعتي أحدٌ

وإن كنتُ الحزينْ ".

لسنا العالم يا جماعة

وأنا ألج هذه المقالة الجديدة، يضجّ العالم بطوابير تفاصيل وأسراب أفعال، إذ يحدث الآن مثلا: عناق شاب ألماني لكتاب علميّ في حديقة عموميّة، تدرّب طفلة فرنسيّة على آلة البيانو، تتبّع صيّاد يابانيّ لحشد من الأسماك بواسطة أجهزة شديدة الدقّة، توهّج كرنفال في شوارع "سيدني"، دخول عامل برازيلي إلى مؤسسة الزواج العتيدة وسط هياج ورقص أهله وندمانه، يحدث الآن ما لا يمكن لأيّ نصّ أو عقل أن يلمّ به، وقد اكتفيت عمدا بسرد أمثلة من جهات الأرض المختلفة دون التطرّق ولو إيماء إلى الوطن العربي، ليس انتقاصا منه بل للتأكيد على شساعة العالم ورحابة الأرض وتنوّع الحضور الإنسانيّ وتعدّد أشكال إقامة الإنسان على ظهر هذا الكوكب...

من الآخر يا جماعة لسنا العالم، لم نكنه ولن نكونه أبدا فنحن رافد من روافد الإنسانية العظيمة، رافد معطّل ومشلول بفعل أبنائه وحمق نخبه وجشع قادته، لكنّ أغلبنا ينسى هذه الحقيقة الموجعة ويتجاهلها إن ثقبت عينيه وصدمت مداركه ولعلّه يرفض الإذعان لمرارة الواقع اليوم، يريد أن يُسقط غيمات الوطن العربي على عالم حيّ نابض بالبحث والعلم والخلق والابتكار، عالم تجاوزنا بمسافات ضوئية، وواهم من يعتقد أنّ الشعوب والأمم الأخرى في أصقاع الأرض تولي اهتماما بتناحرنا المقرف الممل، باستثناء ساسة القوى العظمى طبعا، المجاهدين على مدار الساعة في سبيل البحث عن موارد جديدة لشعوبهم، ولن يجدوا مستودع طاقات وموارد مفتوحا

لمن هبّ ودبّ مثل أقطارنا العربية المشغولة بثورات الذبح والنهب والاغتصاب والتخوين والتكفير والفوضى الشاملة.

من المضحك حتّى البكاء أن نرى البعض منّا يتشدّقون بمزايا "الثورة" وعلى رأس تلك المزايا أنّها لفتت أنظار العالم إلينا وعرّفت بنا لدى القاصي والداني، وبالتالي صرنا حديث الإنسانيّة وهاجسها اليوميّ، هذا ما يؤكّد نهائيّا تفشّي الوهم فينا واستفحال التضخّم المرضيّ في كينونة المواطن العربي، وما علينا إلاّ القيام بجولة سريعة على القنوات التلفزيّة العالميّة أو الإبحار في محيط الأنترنات لنعي فداحة غربتنا وانفصالنا الحضاريّ الرهيب عن مسيرة الإنسانيّة...، أطلّوا على النضال اليوميّ للشعوب والأمم يرحمنا ويرحمكم الله، التفتوا إلى الجهود الجبارة التي يبذلها العالم النرويجي والعامل الصيني والباحث الأمريكي والبيطري الكندي والرياضي الروسي ووووو، افتحوا العالم وشاهدوا ما يضجّ به من منافسات مدهشة في جميع مجالات العلم والمعرفة والفنّ والاقتصاد والفلاحة والبحث العلمي ورسكلة كلّ ما تقع عليه اليد المثقفة المبدعة المتحضّرة، وليست اليد التي تذبح إنسانا باسم المبدع العظيم، ليست اليد الرافعة للسلاح في وجه الأب والأخ والطفلة والمرأة المهجّرة من بيتها وأرضها وعقلها كذلك....

ارفعوا هذه اليد الجاهلة المتخلفّة عن أرضنا وبحرنا وسمائنا، دعونا نحاول اللحاق بمن علّمناهم الطبّ والفلسفة والجبر والهندسة في حقبة ما من تاريخنا العربي، أيّام كنّا مؤمنين بأنّنا أمّة " إقرأ "، كفّوا عن تعطيلنا وشلّ حركة مجتمعاتنا، كفّوا عن إهدار طاقاتنا ونحر عقولنا ومواهبنا، خلّوا بيننا والعالم... أطلقونا... إنّنا مأمورون بالانتصار لهذه الأمّة المظلومة المستهدفة من داخل الجرح وخارجه...

آخر القول:

اهدأ

أعلم أنّك مكتظّ بالقتلى والقتلةْ

ومحاط بالقنّاصين وبالجوعى

أعلم أنّك أحزن من جيش مهزوم

وأشدّ ذهولا من طفل ضيّع أمّه في الأسواقْ

أعلم أنّك مقبور في ضيق الفقرِ

وأعلم أنّك مشتاق مشتاق مشتاقْ

في حضرة محمد السرّار

في بيتي حذو مسودّات مشروعي الشعريّ الجديد مصباح إلكتروني بديع ووديع، كان قبل شهر كامنا في بيت محمد السرّار، بالقرب من أدويته وكتبه وغير بعيد عن زجاجة العطر التي عمّدتْ روحي في لحظة الوداع.

كان المساء الطرابلسي آمنا مطمئنا يعانق حبّات المطر، وكان خالد درويش يحدو سيّارته باتّجاه إحدى ضواحي طرابلس بحكمة شيخ وحذر حارس شخصيّ ورحابة صدر مستشار أمنيّ ومعرفيّ وشعريّ وغيرها من مجالات الحياة التي فرضتْها عليه هواجسي وأسئلتي، إلى أن ركن السيارة في مدخل شارع فرعيّ وطلب منّي النزول بلهجة لا تخلو من الودّ ولا من الصرامة أيضا.

كان بي بعض الفضول للتعرّف على الرجل المريض الذي ذكر لي اسمه في مفتتح الرحلة، لكنّي أضعته في زحام الأسماء المعربدة داخل ذاكرتي، والحقيقة أنّني لم أكن متحمّسا لاقتطاع نصيب من الوقت المخصص لعناق طرابلس وتخصيصه للاحتكاك بالمرض ومشتقاته، فبي من الأحزان على هذه الأمّة ما يكفي لهدم جبل، لكن لم يكن باستطاعتي التخلّص من حبّ صديقي الشاعر ولا التملّص من ثقتي البالغة في اختياراته، وإن ارتأى أن ندخل سهرتنا من باب العلّة والوهن والشيخوخة، وهذا يحدث في أحسن العائلات الشعريّة.

ولجنا البيت وتسللنا إلى إحدى غرفه أين واجهنا هذا الشيخ العليل، وتفتّحت براعم دهشتي واحدة إثر أخرى بمرور الوقت وتدفّق الحكمة والمعرفة من كيانه المحاصر بالوسائد والأغطية...، كانت المفاجأة الأولى أنّ الشيخ رفع آلة صغيرة إلى مستوى حنجرته وكلّمني من خلال تلك الآلة العجيبة، رحّب بي وأطنب في إحراجي بفيض من الحفاوة والكرم، وكنت أحاول جاهدا أن أتهجّى صوت روحه الممتزج بذبذبات الآلة، وبعد فترة وجيزة تمكنّت من استيعاب ما يوجّهه لي من حديث، وكانت رغبته الجامحة في التواصل دون التحرّج من استعمال وسيط آليّ، أوّل الأسباب التي شدّتني إليه ووطّدت احترامه قي كلّ خلاياي المبهورة، فلقد آمنت طوال خمسين سنة بضرورة اعتصام الإنسان بالعفويّة والتلقائية في علاقاته بالآخر، وهذا هو الدرس المقدّس الذي ذكّرني به الشيخ محمد السرّار وسعدت بمراجعته في حضرته، وتشهد الغرفة الصغيرة التي احتضنتنا أنّها ضمّت أسرة متكوّنة من ثلاثة أفراد، هم الأب المتحدّي لمرضه والشقيقان المنتميان إلى دولتين عليلتين وهذا ما دفعني إلى كتابة هذا النصّ.

مرّت الدقائق وأوغل بنا الشيخ الواهن في غابات المعرفة وحقول الشعر والأدب، وعاج بنا إلى جامع الزيتونة أيّام كان طالب علم، وإلى المدرسة الصادقيّة وساحة القصبة وأزقّة المدينة العتيقة، ومرّ بنا على خلاّنه وزملائه الذين كانوا من مؤسسي تونس الحديثة، وباح لنا بحبّه للزعيم الحبيب بورقيبة دون أن يخفي بعض مؤاخذاته على جانب من سياساته..

وككلّ حلم باذخ، داهمتنا ساعة الوداع واضطررنا للاستئذان من هذا الهرم المخفيّ في بيت ليبيّ عامر بالحبّ والعلم والثقافة، ولن أنسى ما حييت حرصه على

تعميدنا بوابل من العطر وكيف امتدّت يده إليّ بالمصباح الإلكتروني وقوله لي: "اقبل هذا المـصباح هديّة منّي"، وقد وعدتـه أن يكـون مـصباحه رفيقـي في ليـالي الـشتاء وأنيـسي في محـراب الكتابـة وبوصلة تذكّرني دائما بطرابلس الغرب وبمحمّد السرّار، أطال اللـه عمره حتّـى لا نـضطرّ إلى ترديـد مقولة بعض القبائل الافريقيّة في مواكب التأبين " لقد احترقت مكتبة ".

آخر القول:

" لا شيء في مكانه

وَلاّعتي في حوزة المطبخ ربّما

أو في الجحيمْ

والشعر فوق الكلمات.. .

يا إلاهي كيف يكتبونْ ؟

أوراقيَ البيضاء تزداد بياضا

كلّما اختلت بيَ الغيمة واشتدّ الحنينْ

المتن في الهامش...

يحيا الهامش الحزينْ

ويسقط الذين أغرقوا الإنسان في أحزانه

لا شيء في مكانه "

وجه الحرية

السمراء الواثبة الهاتفة القائدة لجحافل الذكور المحيطين بها .

السمراء اللا مكترثة بخلوّ وجهها من الزينة والزركشة.

السمراء الضاحكة الصاخبة الغاضبة الساخرة الشادية بالشعار الناريّ تلو الآخر.

السمراء الفقيرة بشهادة هندامها الرثّ، وذات الثراء الروحي والحضاري الفاحش.

السمراء التي تنحني لها الأبجدية، لم أجد الجرأة للاقتراب منها ولسؤالها عن اسمها لأقيمه عرسا في فمي ودمي كما علّمني الراحل العظيم محمود درويش، لذا سأسمّيها العربيّة..

ها إنّني في غرفتي بالفندق الكائن بالدقي في قلب قاهرة المعزّ، أراجع وجهها المتوهّج في ميدان التحرير وأبتسم له ابتسامة النصر، نعم إنّا لمنتصرون ولنا ألف سبب لتحقيق ذلك، وعلى رأس الأسباب جميعها انفلات المرأة العربية من قبضة العقيدة الذكورية المقنّعة بالذود عن العفّة والشرف والأخلاق الحميدة، ... لا أخلاق حميدة منذ الآن سوى ما ستسطّره هذه المرأة ورفيقاتها ورفاقها كذلك على صفحات الزمن القادم، بنضالهم وصهيلهم في الجهات الأربع من ملكوت الظلام، لا عفّة إلاّ طهارة الثورة من كلّ فكر رجعيّ يستبطن دكتاتورية قذرة، لا عورة بعد اليوم غير ذاك

الصوت القديم المترهّل الذي يدّعي أنّ صوت هذه الحرّة الراسخة الآن في ذاكرتي : عورة.

لقد انتصرت وما أزال للمرأة العربية في تونس وفي كلّ شبر من هذا المعتقل المسمّى بالوطن العربي، وإنّي على يقين تام أنّ مستقبل هذه الأمّة بين أيدي حرائرها قبل أحرارها، فلا نجاح لهذه الثورة ما لم تثر الحرائر على الرجل الشرقي الأنانيّ الساكن فينا منذ دهور سيئة الذكر.

إنّ الوجه الذي طمأنني منذ قليل في ميدان التحرير، ووعدني بانتصار الإنسان على الحيوان، كان قد صادفني وعانقني في ميادين أخرى كثيرة، من ضمنها شارع الحبيب بورقيبة بتونس، ومن المضحكات المبكيات التي تومض الآن في دهاليز ذاكرتي، أنّ كائنا مظلما ندّد بصعود إحدى الثائرات التونسيات على كتفيّ أحد رفاقها...، سبحان الله لم ير من المشهد الثوري العظيم إلاّ تلامس جسد أنثوي بآخر ذكوريّ، ممّا أدّى إلى الاحتكاك "المشين" حسب وجهة نظره العمياء، لم ير أنّ هؤلاء الثوار اليافعين يعرضون شبابهم الغضّ على الموت ليعيش هو حرّا وكريما، ولم يعلم بعد أنّ الإنسان ليس آلة جنسيّة، لا همّ لها غير النكاح، ومن الغريب في هذا السياق أنّ خفافيش الظلام يتّهمون حمام اليسار بالفسق والرذيلة وغير ذلك من التهم السخيفة، في حين أنّ هؤلاء المدّعين لخّصوا العالم والحياة في الشهوة ومشتقاتها، ويحلمون باختطاف الثورة العربية وتحويل وجهتها إلى بيت الطاعة، حيث الجواري المتأهّبات لتلبية رغبات " سي السيّد " ... ولن يكون لهم ذلك أبدا

آخر القول:

إلى وجهها المتوهّج في ميدان التحرير

" ها إنّنا وجها لوجه

خالق قلق يدخّن ما لديه من الخلايا والحروف

وبدعة مثلى تحدّق فيه

توشك أن تهمّ به

ويوشك أن يكفّ عن الكتابة

كي يعانقها عناقا خالصا لا عقل فيه

تعبت من عقلي فضمّيني إليك وبدّديه

لكم أتوق إلى غياب خارج المعنى

ولكن أنت فيه".

هواجس كاتب

لا يستعمل حبوب الهلوسة

إضافة إلى معاناته اليوميّة كمواطن قبل أيّ صفة أخرى، في ظلّ هـذا الاضـطراب العظـيم الذي احتارت في تسميته اللغة والإنسان والحيوان ومـن فـوق الأرض ومـن تحتهـا، يكابـد الكاتـب العربي أوجاعا وأحزانا أخرى قديمة ومتجدّدة لهـا علاقـة مبـاشرة بالطريقـة التـي اختارهـا للعـيش وشكل إقامته على وجه الأرض والورقة البيضاء.

ومن الحجج الدامغة والدالّة على قسوة قدر الكاتب العربي، أنّ عليه أن يفقـد عينيـه بـين طيّات الكتب، ثمّ عليه أن يبدع من حزنه حدائق أدبيّة مفتوحة للحزانى والمنبوذين ولمن شـاء مـن الجهلة والغاوين، وعليه بعد أن يكدّ معرفيّا وإبداعيّا أن يجاهد في سبيل نشر كتابه، فـإن نجـح في مسعاه ولم يتحايل عليه ناشر يحمل دار نشره في محفظته، وجب عليـه أن يـوزّع مولـوده الجديـد على الشعب الكريم، بدءا بأصحاب المكتبات ومرورا بمديري دور الثقافة وانتهاء ربّما ببعض مديري المعاهد الثانوية، .. ومن المضحك حقّا، في ظلّ هذه المعاناة السيزيفيّة، أنْ يؤكّد ناقـد سـمين، بعـد أن يتنحنح طبعا ويعدّل وضع النظارات:

"الكاتب الفلاني مبدع حقيقي.. لكنّه مقلّ في كتاباته ولا مبرّر لذلك بتاتا"، على كـلّ لقـد اعتـاد الكاتـب العـربي ظلـم الـسلطة النقديّـة والـسياسية وأدمـن جحـود

ذوي القربى من نقاد وصحفيين وروّاد نواد أدبية وثقافية.. إلخ، ولا خوف عليه من اليـأس في هـذه الظروف "الثوريّة جدّا " فهو محبط أصلا.

في سياق القيام بمهمّة توزيع كتابي "جنّة الذئب"، أفلحت في إقناع أحد المسؤولين الثقافيين باقتناء عشرين نسخة منه، فتوجّهت فرحا مسرورا إلى محطّة سـيارات الأجـرة الرابطـة بـين المـدن، وسلّمت الأمانة الغالية إلى سائق الصدفة الذي كان على وشك الهبوب إلى المدينـة الحلـم.. المدينـة التي أكرمني مسؤولها الثقافي بتخفيف الثقل " الأدبي " الجـاثم عـلى ظهـري، ..أنـا بـدوري أكرمـت السائق وأوصيته خيرا برزمة الكتب، فهي والـلـه بعـض نفـسي، أوَلمْ أودع " جنّـة الـذئب " الـبعض منّي؟، ألستُ مقيما في كلّ صفحة من جنّتي اللغويّة؟، لـذا كـان لا بـدّ مـن الحـرص عـلى توصـيته وتكريمه خاصة...

في الطريق إلى المعتقل الأسَري الجميل، شاغبتني بعض الهواجس وبعض المخـاوف المرافقـة لها، صحيح أنّ سيارة الأجرة انطلقت نحـو مقـصدها، وصـحيح كـذلك أنّ بعـضي، أو لنقـل : رزمـة الكتب في أمن وأمان وفي انتظارها أيد أمينة، صحيح كلّ ما ذكّرتني به نفسي أثناء صدّها للهواجس الوقحة، لكن ماذا لو شرد السائق الشاب قليلا وهو يقود بعضي إلى المدينة الحلم؟، من الأرجح أنّه قابل للعشق في سِنّه تلك، وللعشق أفاعيل رهيبة لطالمـا جرّبهـا عـليّ، كعـدم القـدرة عـلى التركيـز والرغبة الملحّة في الغياب كلّما غاب المحبوب، وغير ذلك من المحن والعـذابات، صراحـة لا يهمّنـي كثيرا أمر السائق الشاب، فالأعمار بيد الـلـه، ما يزعجني حقّا أن يضيع كتابي إن وقع حادث مـرور، ليس خوفا من تلاشي المبلغ المالي الذي كان مقرّرا أن يصل إلى يديّ بواسطة سـحر البريـد، بـل ثمّـة مخاوف وفرضيات مرعبة أخرى، من ضمنها:

ـ وقوع " جنّة الذئب " في يد صبيّة آمنة مطمئنة، ودخولها جنّتي بمفردها واصطدامها بأشجاني المتجذّرة في النصّ، المؤكد أنّها ستعزف عن الدراسة وتحصيل المعرفة والعلم، فيكفي أن تخوض نهرا واحدا من أنهار الدم التي رسمتُها من وحي التاريخ العربي لتزهد في الحياة وهي في أوج تفتّحها وإقبالها على الدنيا ...

ـ اختلاس أحد المتجمهرين حول حادث المرور لرزمة الكتب، كاملة دون نقصان جزء منّي، قد يبيعها لبائع فواكه جافة، وأمسي بالتالي قراطيس يلقي بها الخلق في أماكن لا تليق بي صراحة، والأخطر من ذلك قد يكون الشخص المختلس من الغاوين، من عشاق الأدب والبيان والتبيين، ومن المنتمين إلى ناد أدبي في أحراش البلاد، يا هول ما سيحدث إن هو وزّع النسخ على أعضاء النادي وتمّت مناقشة جراحي الفكرية وهلوساتي الشعرية بحضور جميع الأعضاء، وأنا أدرك تماما أنّهم غير متناغمين، فبعد الثورة أمسى الواحد منّا يثور على خلاّنه وأصفياءه وجيرانه ووالديه، وكلّ ما يتحرّك في مجاله الحيويّ، بل يعارض نفسه إن لم يجد من يعارضه.. فأحيانا ينام كلّ من حوله وحتّى سكّان الفيسبوك، ماذا سيفعل وهو الثائر..، عليه أن يتّهم أحدا ما بخيانة ما، وبالجهل مثلا أو الكفر على سبيل المثال...

لنعد إلى خوفي من مناقشة كتابي في النادي الأدبي المفترض، وإلى الأعضاء المتناحرين خاصة، فمنهم الحداثيّ الذي سيدافع بضراوة عن حزني المبثوث في مدينتي الفاضلة التي اخترت لها اسم : " جنّة الذئب "، ومنهم الانتهازي المنافق الذي سيسكب سمّه على النار وهو يبتسم للجميع، ومنهم الكائن المغلق تماما .. الممتلك للحقيقة والناطق باسم الخلق والخالق، أحدس أنّه سيلقي كتابي والحداثيّ والانتهازي المنافق في نارٍ ما ويُغلق هذا النصّ.

....

نكاية فيه وانتصارا للسائق العاشق، نختم النص بآخر القول:

" بمناسبة صدور ضحكتكِ الشعريّة عن دار السحرْ

يستضيف الحنين قلبي

بقيّة أيّام العمرْ

دون استثناء العطل الرسميّة

والأعياد الدينيّة والوطنيّة والقوميّة

البرنامج:

كلمة السيّد الصبر

يلي ذلك نواح فرديّ للروح

ثمّ الجنون الجنون الجنونْ

الهلاك المبينْ.

الدعوة مفتوحة لكِ أنت فقط "

مرّة أخرى ...

عن الحبّ القاسي

رغم إيماني العميق بضرورة تمحور جلّ ما يكتبه اليوم أدباء وشعراء العرب حول ما تعيشه الأمّة من أحداث جسام وأوضاع رهيبة إلاّ أنّني ما أزال على موقفي الرافض بقوّة لامتهان النصّ الأدبي والشعري خاصة بدعوى تبسيط الخطاب والدفاع عن قضايا الناس وغير ذلك من التعلاّت الواهية المدافعة عن الرداءة وأصحاب المواهب المزيّفة، وأستحضر اليوم صرخة محمود درويش الذي صاح ذات حنق: " أيها المتطفّلون على الكتابة ارحمونا من هذا الحبّ القاسي "، من حقّ كلّ هاو للأدب أن يشارك في تصحيح مسار الربيع العربي وإنقاذ وطنه من تداعيات الفوضى والتجاذبات السياسية العنيفة ولكن ليس على حساب جماليّة النصّ الأدبي ودون تجاوز الشرط الإبداعي، الأدب ليس الحمار القصير الذي يمتطيه كلّ مدّع للوطنيّة والثوريّة والنضال وغير ذلك من الصفات المتفشّية اليوم مثل موضة لا شرقيّة ولا غربيّة بل محليّة خالصة، لا يمكن أن يبتكرها ويتقن صنعها وترويجها غير العرب.

لقد عانت الساحة الأدبيّة العربية طويلا من " موظفّي القضيّة الفلسطينيّة " ولا أقصد المبدعين الذين كانوا خير سند لها بفضل نصوصهم المبهرة العالية، بل أشير إلى آلاف الأدعياء ممّن اتّخذوا من جرح فلسطين مطيّة للبروز واحتلال مكانة إعلاميّة ليسوا أهلا لها، هكذا كانت حال المدوّنة الأدبيّة قبل اندلاع الثورات العربية الأخيرة، واليوم تضاعفت القضايا فتضاعف بالتالي عدد المدّعين في الأدب موهبة

وفي العلم فلسفة، فتيان وكهول وعجائز وشيوخ لا علاقة لهم بالكتابة الإبداعيّة وجدوا فرصتهم التاريخيّة داخل هذه الفوضى العارمة التي تتخبّط فيها جلّ الأقطار العربية، وعثروا على أداة جهنّميّة للانتشار في أوساط الغوغاء المقيمين في ظلال الفيسبوك، يقرأ الواحد منّا مصادفة خربشة لغويّة بائسة ثمّ يطّلع على التعليقات التي تحتها فيصاب بالغثيان أوّلا ثمّ يتشكّك في ذائقته الأدبيّة ومخزونه المعرفي وربّما في مداركه العقليّة، فيعود إلى النصّ المحتفى به من قبل المئات من المعجبين المهلّلين المبتهجين " بالنصّ الثوريّ "، يتهجّاه سطرا إثر سطر، يحاول أن يفقه سرّ تميّزه ثمّ يعوذ بالله من زمن الرداءة الذي طال بشروره كلّ شيء دون استثناء، بدءا بادّعاء الجميع امتلاك الحقيقة المطلقة وتصدّع العلاقة المتينة بين أفراد الشعب الواحد والحيّ الواحد والبيت الواحد وانتهاء بصعود كلّ من هبّ ودبّ على ظهر الأدب باسم الدفاع عن الثورة والحريّة ولست أدري ماذا.

لا شكّ أنّ شخصي المتواضع مع كلّ قلم يُرفع اليوم في وجه الفتنة الزاحفة نحونا والفوضى المهدّدة لسلمنا الاجتماعي وثبات مؤسساتنا الوطنيّة وصمود الدولة والفرد والمجتمع ككلّ، لا شكّ في ذلك مطلقا لكن ليس على حساب رفعة الأدب وجودة النصّ والشرط الإبداعي، رجاء رفقا بأوطاننا بما ذلك المدوّنة الأدبيّة العربية... يكفينا خرابا.

آخر القول:

أيتها الحجرة الضيّقة

لن أخرج من ضيقك

إلاّ نصّا أو نعشا

دفاعا عن المبدعين

المثقفون تحالفوا مع الأنظمة السابقة، الكتّاب ساندوا الطغاة، الفنّانون تواطئوا مع الفاسدين، هذا نزر يسير من الاتّهامات التي يوجّهها من هبّ ودبّ إلى النخبة المثقفة المبدعة في الوطن العربي، بل إنّ حملة التشويه والإدانة اتّخذت مسارا جديدا في أكثر من قطر عربي، وأمسى كلّ حوار في وسائلنا الإعلاميّة يبدأ وينتهي بسؤال سخيف: " لم لا يشارك المثقفون بكثافة في الحراك الشعبي؟" وبجواب أشدّ سخافة: "من لم يشارك في الثورة لا قدرة له على تصحيح مسارها"، لكلّ هذا وجب توضيح بعض النقاط:

ـ هل هؤلاء المثقفون زوّار أو سيّاح قدموا من المرّيخ مثلا؟، أليسوا منبثقين من عمق هذه الشعوب التي أكدّت أكثر من مرّة أنّها قابلة للتدجين ؟، فلماذا ننفي صفة الجبن والخنوع عن شرائح كثيرة من مجتمعاتنا ونلصقها فقط بالمثقّف والمبدع والفنّان؟، لست أدافع عن خضوع البعض منّا للطغيان ولكنّي أحرص على التذكير بحبكة التضييقات التي كان يتّقنها أعوان الأنظمة السابقة، لقد قلت سابقا وأعيد ما قلته من باب الذكرى التي قد تنفع المزايدين وتفحمهم ربّما، كنّا جميعا نعيش داخل ثكنات محكمة الإغلاق ومتقنة التسيير الداخليّ، لا شيء يتنفّس أو يتحرّك خارج إرادة السلطة وكلّ من يجرأ على اقتراف فعل الحريّة يكون مآله السجن أو المنفى وأحيانا أخرى يُعدم تحت جناح الظلام في شبر ما من تراب هذه الأوطان المغبونة، ومع ذلك حاول الآلاف من الكتّاب العرب ومن المثقفين عموما أن يخترقوا جدار الكبت والتعسّف واستنهضوا همم شعوبهم بشتّى الوسائل الإبداعية من كتابة

ورسم ونحت ومسرح وسينما وغير ذلك، وأدعو إلى مراجعة الأعمال الإبداعية والفنية التي أُنجزت في عهود الجبابرة ليأخذ كلّ ذي حقّ حقّه، المشكلة الأساسيّة حسب وجهة نظري تكمن في الادّعاء الزائف والميل الغريب إلى اتّهام الناس ظلما وعدوانا، أتحدّى الأغلبيّة الساحقة من الشعب العربي بما في ذلك " المتعلّمين" من طلبة وأساتذة وإطارات عليا، أتحدّاهم إن هم اطّلعوا على رواية واحدة أو مجموعة شعريّة واحدة طوال العقدين المنصرميْن، إنّه الجهل المتأنّق المتبجّح بما ليس فيه وليس له، وبشكل تعبيري آخر يمكن القول أنّ السلطة الغاشمة والمجتمع المحايد العاطل عن الحياة وضعا المثقفين والمبدعين في معتقل عنصريّ وتعاملوا معهم جميعا دون استثناء كطائفة خبيثة، حاصرهم الجميع في الوظيفة والشارع والبيت وتعاملوا معهم بتجاهل مخز وبسخريّة قاتلة، كم من شاعر مثلا سمع ما يكره من أهله ومن جيرانه وأصحابه كلّما تطرّق الحديث إلى جدوى الشعر وقدرته على تغيير الواقع؟، وكم من فنّان تشكيلي تهاطلت على أمّ رأسه الضحكات المؤذية وهو يعدّ معرضه ويرتّب لوحاته بدعوى أنّه يعيش خارج الزمان والمكان؟، الأمثلة عديدة ومحزنة لكنّها تؤكّد أنّ الكلّ يتحامل على نخبة المبدعين في حين أنّ أغلب أفراد المجتمع ساهموا بشكل من الأشكال في نفيهم داخل دائرة مغلقة بعيدا عن الحراك الشعبي، فوجدوا أنفسهم أثناء الثورة وبعدها دون سلطة معنويّة ورمزيّة تمكّنهم من القيام بالفعل الثوري وحشد الجماهير، ومع ذلك حاول العديد منهم أن يشاركوا في تحرير أوطانهم من قبضة الطغيان وشاركوا كمواطنين عاديين في الاعتصامات والمسيرات والاضرابات وغيرها، ويبدو أنّ هذه الشعوب المستضعفة والقاسية في الآن نفسه ... يبدو أنّها تطالب كلّ مثقّف ومبدع أن يحمل لافتة تعرّف به كلّما شارك في مسيرة أو ما شابه ذلك.

آخر القول:

سبقوني إليها وما افتضّها أحد

لستُ فحلا ولكنّني الجسدُ

بي كتبتُ لها

وعليّ رسمت ملامحها واعتكفتُ

ستطرق بابي القصيدةُ

إذْ ما تقوّلت يوما عليها

ولم أستعر قلما أو لسانا

وما غرّني الزبدُ

وليكنْ أنّني في سجلاّت عشّاقها عددُ

سنرى مَنْ ستُشرق من يدهِ

ونرى مَنْ سيلفظه الوقتُ والبلدُ

رجل بأسره يمشي وحيدا

أو

البحث عن موضوع آمن للكتابة

سأكتب عن الاضطرابات العظيمة التي تشهدها مصر، لا فقد تتجاوز الأحداث هـذا الـنصّ الذي يتشكّل الآن فجر يوم الثلاثاء 2 جويلية والـذي سـتطّلع عليـه، سـيّدي القـارئ الكـريم، بعـد يومين اثنين، وقد تكون مصر آنذاك إمارة إسلاميّة حـسب الوعـود الرعديّـة التـي يطلقهـا الإخـوان المسلمون، أو ربّما تصبح ثكنة عسكرية حسب الوعيد المهذّب للجيش المصري، ثمّة احتمالات كثـيرة ورياح عاتية لا تسمح لي بكتابة نصّ عن هبة النيل في هذا الفجـر التونـسي، تلـك الهبـة العظيمـة المهدّدة بالزوال، أدعو اللـه أن يحميهـا وألـتمس مـن الـنصّ أن يحـوّل وجهتـه إلى موضـوع آخـر، موضوع ثابت ولو نسبيّا في زمن التحوّلات البرقيّة باسم الثورة ومشتقّاتها المجانيّة.

سأكتب عن أحداث طرابلس الأخيرة وسقوط الإخوة بأيدي الإخوة وإشراف ليبيا على هوّة التطاحن الأهلي، لا فقد يصيبني سباب طائش مثلا بتعلّة تدخّلي في شأن ليبي عائلي وقـد يقـال لي اعتن بشجار أسرتـك التونـسية، وصراحـة لي فـائض مـن الاتّهامـات واللعنـات والـصفعات الوطنيـة الخالصة ولست محتاجا إلى هبات خارجية وإن كانت من قبل أشقاء ليبيـين، لـذا سـأوصي الـسماء خيرا بليبيا وأبنائها وأبحث عن محـور آخـر للكتابـة، محـور آمـن نـسبيّا بعيـدا عـن لعـب الإخـوة بالرصاص والمدافع .

عجبا كيف لم أفكّر في الكتابة عن تونس ؟، أليس كلّ ما يحدث فيها اليوم من عجائب وغرائب يحفّز على الكتابة بالدمع والدم ؟، ألم يستفزّني مثلا انقسام شعبي بين كفّار ومسلمين؟، وهروب جماعة أتقياء بالوطن كلّه دون نقصان مؤسسة واحدة؟، أكاد أرى شعبي في الساحات والميادين وهو يركض صارخا : " أمسكوا الخاطفين .. أمسكوا الخاطفين"، أكاد أواصل الكتابة في الشأن التونسي ولكنّ ما بي من غضب يمنعني من صياغة بقيّة هذه الفقرة دون السقوط في النواح واللطم والزعيق .. والسبّ ربّما، لذا سأهرب من شجني التونسي إلى أيّ ملاذ آخر في ملكوت الأبجدية.

حسنا أعتقد أنني سأجد راحتي في الكتابة عن أيّ شيء لا علاقة له بالفوضى المستشرية اليوم في الوطن العربي، يكفي الناس ما يرونه ويسمعونه في كلّ لحظة من أهوال وبشائع، سأكتب عن أمّ العيال التي اشترت نصيبا من الحبوب ونثرته على سطح البيت لتستدرج الحمام المقيم في صومعة المسجد القريب، مسكينة أمّ العيال، كأنّها تبحث لبيتها عن السلام في زمن القتل والسحل فلم تجد خيرا من الاستنجاد بالحمام الذي لم يلبّ دعوتها للأسف، لعلّه مهووس باقتناص أشياء أخرى أهمّ ولعلّه أصيب بعمى البصر والبصيرة كسائر الخلق، مالي رجعت إلى الكتابة عن الهمّ المشترك من جديد؟، أمقدّر لي أن أصبح مبرمَجا بشتّى الهواجس الرهيبة والأفكار السوداء؟، لا سأكتب عن شيء ما، شيء بهيّ ونقيّ، شيء يطهّرني من الكراهيّة المتفشّية في السواد الأعظم من الناس، يا إلاهي صرت لا أتحمّل سماع كلمتين اثنتين من خصمي السياسي، يا إلاهي لم أعد أطيق رؤية من يخالفني الرأي، يا إلاهي ماذا فعلت بنا هذه الثورة أو المؤامرة أو الفتنة أو .. أنت أعلم بها، يا إلاهي أعنّي على

تذكّر كائن بهيّ ونقيّ لأؤمن بخيريّة الإنسان وجمال العالم من جديـد..، يـا إلاهـي كيـف لم أكتـب بعد عن أمّي التي تركتني محاصرا بضجّة أبنائي وزوجتي وشعبي وأمّتي .. ووحيدا تماما، كم ينطبق عليّ عنوان ديوان مفتاح العماري : " رجل بأسره يمشي وحيدا "، وكم أشتاق إلى أمّي يا خالق الموت والحياة .

وصفات واقية

للبقيّة الباقية

يبدو أنّ هذه الفوضى الخلاّقة والمباركة إن شئتم، ستطول وقد تذهب بما بقي من أوطان وعقول، لذا أتطوّع بصفتي عاطلا عن الحياة منذ فترة ليست بالقصيرة، لتقديم بعض الوصفات الواقية من الرغبة في الانتحار مثلا أو الاستسلام للجنون على سبيل المثال، وذلك مساهمة منّي في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، هذا إن لم يكن الأوان قد فات، فجلّ معارفي وجيراني وأصدقائي الافتراضيين كذلك في ملكوت الفيسبوك، بدت عليهم علامات الزوال، مثل رفض الكلام وعدم ردّ السلام، لكأنّ العالم يدخل أفواجا أفواجا في الذهول، وذاك حديث يطول...

أيها الناس لن أقول لكم : الفوضى أمامكم والأزلام وراءكم، إذ لا أمام لكم اليوم ولا وراء، إنّكم في قلب الرحى ولا أخفي عنكم أنّ العمّة أمريكا تدير الرحى بهمّة وعزم، ولسان حالها يقول لكم : كلّكم ثائر وكلّكم مسؤول عن ثورته، فلا تدّخروا جهدا في التطاحن حتّى تفنوا جميعا وأعجن هذه الخارطة العربية كما يشاء هواي وحبيبي : رأس المال المتوحّش.

هذه هي الحال ولكن لا يأس مع العبث، نعم العبث، وأؤكّد مرّة ثالثة، أدعوكم للتحصّن بالعبث، فما حدث إلى حدّ الآن من مجازر وأهوال، " يعدّ جناح بعوضة في حافر زرافة " مقارنة بالآتي، كما ورد في كتابي التحذيري العظيم الذي سميّته " جنّة الذئب " ولم يقرأه إلاّ بعض البلهاء المؤمنين بالكتابة مثلي، ويبدو أنّ

الـذئب سـيظلّ يعـوي وحيـدا في جنّتـه حتّـى تنفجـر حنجرتـه ويـسيل الـدم مـن فمـه المقدّس

قد لا يكون حديثي لكم مرتّبا مثل درس مملّ أو وعظ كلاسيكي، وهذا من أفـضال العبـث الذي اهتديت إليه وربّما سقطت فيه، ولا فرق عندي بين الحالتين ما دامت النتيجة واحـدة وهـي الخلاص، نعم الخلاص الذي أدعوكم إليه، ليس رأفة بكم ولا حبّا فـيكم، بـل لأنّي ببـساطة أمـارس العبث، فأنا أدرك تماما أنّ هذا النصّ لن يغيّر حال قوم لم يغيّروا مـا بأنفـسهم، ولكـن لا بـأس مـن المحاولة، بدل الجلوس أمام التلفاز لإحصاء القتلى وتأثيث الذاكرة بخرائب المدن العربية المتوضّـئة بالدم.

لا بأس إذن من المحاولة، وهذه بعض النصائح المجانية لمن شاء مـنكم أن ينجـو بعقلـه أو ما تبقّى منه:

ـ النوم أطول مدّة ممكنة، فقد ينقذك المـوت وأنـت تحلـم بـامرأة العمـر، (مـع المعـذرة للنساء) فكلّ شيء محرّم عليهنّ حسب آخر الفتاوى الخليجيّة، باستثناء الطـبخ والإنجـاب والمـوت طبعا.

ـ الإبتسام لكلّ من يزعـق في وجهـك، بـدءا برؤسـاء الأحـزاب ومـرورا بالزوجـة والأطفـال وانتهاء ربّما بجارك الذي تاب مؤخّرا واكتشف أنّه مسلم وأنّك زنديق

ـ تصفّح جريدة واحدة طوال حياتك الباقية، والأحسن أن تكون صحيفة قديمـة ولا عليـك فلن يفوتك شيء: فأخبار القتل متوفّرة، وصفحات السياسة كثيرة ومكتظّة بالسباب وتقاذف التهم، كما أنّ صفقات بيع الرقيق الأبيض المختصّ في الكرة موجودة كذلك، فـما كـان سـوف يكـون، لمـاذا إذن لا تكتفي بما كان .. من عبث؟.

ـ المواظبة على شرب كلّ السوائل الممكنة والاغتسال بها، لعلّها تنظّف الكائن من الـداخل المتعفّن يوما بعد يوم، وإن كانت المأموريّة شبه مستحيلة، فالوحل أتى على كلّ شيء في الإنسان.

ـ ليكن شعار المرحلة: "مات العبث... عاش العبث"، ولا جدوى مـن ترديـده خـارج إطـار الذات، فلا جدوى من ذكره للقطيع.

وآخر ما أختم به : أشهد أنّي قد بلّغت.

شرعيّة الثورة

وحرمة الإبداع

آمال المثلولي مطربة تونسية صاعدة، عرفها الـشعب التونـسي واحتـضنها في خـضم الثـورة ولاقت نجاحا جماهيريا كبيرا بفضل أغنية ثورية جميلة، صدحت بها أوّل مرّة في زحام المتظـاهرين الزاحفين على وزارة الداخلية بقلب العاصمة التونسية، وقد تلقّفتهـا الفـضاءات الثقافيـة المختلفـة وما لا يُحصى من المنظمات والجمعيات المدنيّة، وتنافست على حضورها كلّ وسائل الإعلام الإذاعية والتلفزية ولم تغب يوما واحدا عن صفحات الصحف والمجلات، وخلاصة القـول لقـد مـلأت الـدنيا وشغلت الناس واتّفق الإخوة الأعداء على شرعية مجدها الإبداعي والثوري وأمست آمال في سـنتين تقريبا رمزا مقدّسا من رموز الفنّ والنضال في تونس، لكن حدث ما لم يكن في حسبان أحد.

منذ أيام قليلة طلعت علينا "آمّولة" بأغنية جديـدة مـن تأليفهـا وتلحينهـا وأدائهـا، تبـارك الـلـه، وتتمحور المعجزة الإبداعية الجديدة حول اغتيال الشهيد شكري بلعيد الذي أقمنا أربعينيته مؤخّرا، ويقول مطلع الأغنية:

"ما قتلو حدٌّ شكري

قتلو المعتمد والحاكم"

إضافة إلى ضحالة الكلمات والتناول الشعري الـساذج لجـرح عميـق يـؤرّق الناس صباحا مساء، جادت علينا الأخـت بلحـن كنائـسي رتيـب وغريـب عجيـب،

"وعينك ما ترى إلاّ النور" كما يقول الإخوة المصريون، زلزلت الأرض زلزالها وتهاطلت على المسكينة شتّى أصناف الانتقادات والاتّهامات وغصّت صفحات الفيسبوك والشبكة العنكبوتية بالسباب والقذف والتهكّم وغير ذلك من فنون تونسية صرفة، وهذا ما دفعني إلى كتابة هذه المقالة، فما حدث يثير مسألة هامة في الوسط الفنّي والثقافي العربي، خاصة في ظلّ الانفلات الذي طال كلّ شيء:

أوّلا، تُثبت هذه النكبة لفنانة متألّقة ومتحصّنة بالشرعية الثورية أن لا قداسة لأحد بعد الثورة، وهذا أمر في غاية الايجابية رغم تعاطفي الشخصي مع منكودة الحظّ

ثانيا، يمكن القول أنّ ماكينة الغربلة التي بدأت بالدكاكين الحزبية والبالونات الثورية، وصلت إلى الساحة الفنّية والثقافية، وهذا في صالح الإبداع الذي ركبه كلّ من هبّ ودبّ.

ثالثا، أكّد الشعب الطيّب أنّه لن يقبل الرداءة مهما كان مأتاها وإن كانت صادرة من قلب الثورة المباركة، وفي هذا الرفض إشارة واضحة وجليّة بالتوقّف عن الهذر والثرثرة لكلّ الداخلين إلى حرم الإبداع من باب النضال، فلكلّ مقام مقال

رابعا، رغم إدانتي للحملة المسعورة التي استهدفت هذه الشابة، أعتقد أنّ على جميع الأسماء التي اندلعت في المشهد الفنّي والأدبي أن تراجع مشاريعها وتعمل على صقل مواهبها، إذ لا يكفي أن يكون المرء ثوريّا لكي يكون مبدعا كبيرا، ولنا في تاريخ الفنّ أدلّة كثيرة على ذلك، ثمّ وللأسف الشديد ثمّة شخصيات في جميع مجالات الفنون، لم تكن لها علاقة بأي نفس ثوري، بل على العكس تماما، ثمّة من تحالفوا عبر

العصور مع طغاة وجبابرة ومع ذلك أفحموا العالم بإبداعاتهم، وتلك هي أحكام الفنّ والإبداع مـذ

نحت الإنسان الأوّل دهشته على صخور الكهوف

آخر القول :

يفكّر فيكِ ويفعل ما لا يريدْ

يكرّر أنّات من سبقوه إلى قبضة العشق

ينسخ أيّامه مجبرا

ويسير إلى قبره في زحام العلاقات

مستوحشا ووحيدْ

عن أوهام النخبة

في زمن الثورة أو الفوضى أو لست أدري ما الوصف اللائق بما نعيشه اليوم، ... أوافق القائلين بنخبويّة الأدب ولكن ما الذي نقصده بالنخبويّة؟، هل القصد الوصول بلقاءاتنا الأدبية إلى الحالة المزرية التي عشناها طيلة عقود حزينة ومريرة، ندوات أدبيّة شبيهة باجتماعات سريّة لفئة ضالة وأمسيات شعرية يحضرها الشعراء الضيوف ومدير الفضاء الثقافي الذي يحتضن الأمسية، وغالبا ما يكون السيد المدير مدمنا على التثاؤب والأمن الشعريّ خاصة، ليقدّم تقريره في ختام الجنازة لأسياده الطغاة، ... وقد يخطأ بعض المارّة ويجدون أنفسهم وجها لوجه مع الشعراء اليتامى فيجلسون قليلا استردادا لأنفاسهم ولمعاينة وضع سرياليّ (شعراء يشدون لبعضهم البعض وفي نبرات أصواتهم حرج واضح وجليّ ومفضوح، كمن يلقى عليه القبض متلبّسا بجريمة)، هكذا كانت حال اللقاءات الأدبية في كلّ الأقطار العربية التي تشهد اليوم انتفاضات شعبية، ندوات وملتقيات فكرية ومهرجانات شعرية وحفلات توقيع لكتب لا يسمع بها أحد ولا يدنو منها أحد حتّى وإن اصطدم بها في الأرصفة المخصّصة لرسكلة الكتب الحديثة والقديمة، والغريب أنّ أصوات مناصري "النخبوية" كانت وما تزال عالية وحادّة، ما يزال بيننا من يسيرون في جنازة الثقافة العربية، وهم يهلّلون من البهجة والنشوة احتفاء بتمثيلهم للمعرفة والإبداع ....، هل انحسرت النخبة في أقطارنا العربية حتّى أصبح بالإمكان عدّها على أصابع اليد الواحدة في مختلف تظاهراتنا الفكرية والأدبية ؟، وهل هذا ما نقصده حين نتشدّق في المنابر المقفرة والمجالس الباردة والمهرجانات الجرداء بسموّ الفكر والفنّ على العامة

و" الغوغاء"، إن كانت هذه نخبوية الإخوة المبدعين الأفذاذ، المنظّرين الكبار لتفوّقهم الفكري والعلمي والحضاري والإنساني ربّما على قطعان المواطنين الهائمين من الملح إلى الجرح، إن كان هذا ما يراد بالثقافة في أوطاننا، فيا خيبة المسعى...

وصلت بنا المهزلة إلى الإحساس بالسعادة وإلى الاقتناع بالغالبية الساحقة أنّ الندوة الكبرى التي حضرها تسعة مثقفين في قاعة النزل الفلاني، ودامت ثلاثة أيّام وتجنّد لها العشرات من موظفي النزل وعمّاله وخدم الغرف بإشراف مسؤولين كبار من سلطة الإشراف وتمّت تغطيتها إعلاميّا من قبل قناة تلفزية وإذاعتين إحداهما وطنية والثانية محليّة ووووو .... حقّقت نجاحا باهرا وحرّكت السواكن ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، لنخرج إلى الناس أيّها الناس، ولننفتح على مجتمعاتنا ونستقطب الملايين من المتعلّمين والمغرمين بالأدب والظامئين إلى فكر حرّ يرفعهم من هامش التهميش، ثمّ واستنادا إلى معدلات الأرقام، هل تنحسر النخبة إلى هذا الحدّ المحبط للعزائم، (زمرة من المنظّرين للبؤس الثقافي في أمّة تضجّ بملايين التلاميذ والطلبة والأساتذة والدكاترة وأصحاب المواهب الأدبية والفنيّة...)، النخبويّة لا تعني تقليص جماهير القرّاء والمتعلّمين والعصاميين إلى حدّ إلغائهم تماما، مع البكاء على انقراضهم، وهنا لابدّ من الإشارة إلى اطّلاعي على نسب الأميّة والجهل والكسل أيضا في مجتمعنا العربيّ، ولكن هذا الأمر المحزن والحقيقة الفاجعة، لا يدحضان رأيي ووجهة نظري الداعية إلى توسيع دائرة النخبوية وإمكانية النجاح في هذا المسعى، فبقدر ما لدينا من أمّيين ومهمّشين متاحين للاستدراج نحو الظلام، بقدر ما تعجّ مدننا وأريافنا بالمثقفين والمتنوّرين، لدينا من " الطين والمادّة الخام " ما يكفي لخلق طبقة واسعة من القرّاء والمتابعين للشأن الفكري والثقافي، ولاستقطاب آلاف المواهب والطاقات

الإبداعية ، فقط، نحتاج إلى وسائل للقيـام بـذلك وإلى مؤسـسات ثقافيـة وإعلاميـة فاعلـة داخـل المجتمع، ذات نفوذ وعلى رأسها مؤمنون مدجّجون بالحبّ والعناد، ولكن (مرّة أخرى) وقبل كلّ ما ذكرت، نحتاج إلى قرار سياسيّ من لدن من بأيديهم الأمر اليوم، وإلى جبهة ثقافيّة للمطالبـة بـذلك والحرص على تطبيق مطالبها......

آخر القول:

كذبوا عليَّ

لم أشف منكِ وما خرجتُ لصيد شيءْ

فأنا الطريدة جئت أبحث في ظلال طفولتيْنا

عن بهاء صادني

ومضى بعيدا زاهدا في عقد دمعي

جئت أبحث عنكِ يا جرح النبيَّ

أشهد أنّي رأيت الجبال

من وحي مهرجان "تموايت" بمدينة ورزازات المغربية

منهكا من حنين وتعب، أحاول رسم حلم عشتُه من 4 إلى 9 جويلية الجاري، أعلم أنّني سأفسد اللوحة التي كنت داخلها ولكن لا مناص من ذلك، إذ بي صوت جبّار يأمرني بالكتابة عن قوم تفيّأت ظلالهم وشربت من منابع أخلاقهم الصافية، سأفسد اللوحة وليكن شفيعي في فعلتي أنّ دافعي الأوّل والأخير هو أن أشير إلى الجبال التي تقيم في مغرب القلب، لست أدري بما أبدأ وكيف ألج البوح، "فالتفاصيل كروم والعناقيد كثيرة " ومع ذلك سأطلق العنان للطفل الكامن فيّ ليرسم دهشته ويقبّل من بعيد كائنات مورقة. لتكن البداية من محبّة الشاعرة المغربية فاتحة مرشيد، هذه النخلة التي أشارت إلى تدفّقي الشعريّ في اليباب، فلم يتردّد الشاعر عبد الحكيم آيت تاكنيوين في دعوتي للمشاركة في الملتقى الشعري والموسيقي لمدينة ورزازات، في دورته السادسة ... فكان هبوبي إلى المغرب رفقة الصديق الشاعر سمير السحيمي والصديق الفنان مروان سامر. أن تجد في انتظارك شخصا تابعا للجنة تنظيم المهرجان فلا عجب في ذلك، أمّا أن يحضنك في مطار دار البيضاء ثلاثة شعراء ورابعهم فنان تشكيلي في لون التراب وتواضعه، فهذا ما يُربك النفس ويلقي بها مباشرة في عبادة الشعر الذي حباها بكلّ هذه المحبّة من قبل إخوة لم تلدهم " عويشة " أمّي التي سلّمتها إلى القبر مكرها ها إنّي بصدد تشويه اللوحة، فاللغة هذه المغرورة المتبجّحة، لا تريد التسليم بعجزها عن رسم الرحلة من الدار البيضاء إلى ورزازات عبر مرّاكش وما تلاها من جبال تلهج بعظمة المبدع الأكبر، تقاسمتنا

الأحضان والسيّارات وأوغلنا في الحبّ والشعر والجنـون حتّـى بزغنـا مـع الفجـر في هـدأة المدينـة المؤمنة بالشعر والموسيقى، وتساءل عبد الحفيظ اللمتوني "سلطان الماء" في مدخل النزل الغـافي : " ... ولكن أين الجبال التي وعدتمونا بها ؟..."، كان مثلي متوهّجا من فرط مـا أحـبّ الـشعر والحيـاة طوال تسلّقنا لقامات المغرب المتسربلة بالليل. للملتقـى صـحافيون هبّـوا مـن كـلّ صـوب، ونقلـوا تفاصيل سهراته الشعرية والموسيقية وما اتّسمت به من روعة وبهاء وحسن تنظيم، من ذلك مـثلا مشاركة شعراء من تونس والجزائر والمغرب وإسبانيا وسهرة الفنانـة المغربيـة سـميرة قـادري التـي أكّدت أنّ المبدع الحقيقي لا بدّ أن يتسلّح بالمعرفة ويجتهد في البحث ويحرص عـلى الانفتـاح عـلى حضارات الشعوب، فقد سافرت بـالجمهور إلى أكـثر مـن شـعب متوسّـطي وغنّـت قـصائد وأغـان بلغات مختلفة كما حرصت على ترجمة بعض معاني ما صدحت به في سهرة اسـتثنائية، إضـافة إلى استمتاع روّاد المهرجان بالإنصات إلى عديد الفرق الموسيقية المغربية التي قدّمت عروضا امتزجـت فيها الموسيقى العربية بالموسيقى الأمازيغية في جوّ مـن التنـاغم والانـسجام ، كـما حرصـت هيئـة المهرجان على تنظيم رحلات للضيوف قصد اطلاعهم على المخزون الحـضاري للجهـة... صـور كثـيرة تتعانق في الذاكرة، من ضمنها مثلا :

ــ الفتيات المنسكبات في شوارع المدينة، الجامحات عـلى دراجـاتهنّ، الغـافلات عـمّا يُـدبّر للمرأة العربية في مخابر الجهل والتطرّف والحقد الأعمى على كلّ جمال وإبداع وحرية.

ـ القصور أو " القصبات " الشامخة تحت لهيب الشمس، يا إلاهي يكفي القليل من الطين والإيمان ليعلي الإنسان معجزته بعيدا عن تنظير اليسار وهرطقة اليمين، ثمّة يسار ما، لا يعرفه سواي أنا ومحمد الزرهوني وسلطان الماء طبعا، فيا ربّ احفظ ذاك اليسار.

ـ نادلة المطعم والمسبح، تلك النشيطة كشلال ماء، تلك الجندية المدنيّة المبتسمة البكماء، لم ينتبه إلى نضالها المقدّس آخر الليل غير قلبي الذي التفت ورآها ريحا متربّصة بطلبات المجانين الأبرياء من كلّ دم، إن كانت تلك المناضلة عورة فعلى الأمّة العجيبة الغريبة .. السلام.

ـ ثمّة سنبلتان منحنيتان حظيت بالجلوس إليهما في أكثر من حقل، وأشفقت على بعض من تركتهم في بلادي يتبجّحون بكتابة نصّ هزيل ويتفاخرون بمعرفة عناوين بضع روايات، حين يجلس المرء إلى بنعيسى بوحمالة ويحاوره يدرك فداحة المقولة الافريقية الخاصة بتأبين الحكماء: " لقد احترقت مكتبة "، بلى هذا الرجل مكتبة حيّة ومفتوحة لمن به ظمأ دائم للمعرفة، اللهمّ أجّل ما استطعت أفول هذا الضوء، السنبلة الثانية ليست سوى عبد السلام فزازي : دكتور، أستاذ جامعي، ناقد ، باحث، ضاحك ، هامس، منصت للجميع، لا قفازات ولا أقنعة، لا حذلقة لفظية ولا زهو وهو يقترف أفعال الحيا..

ـ " العصابة " التي احتضنتني ينتمي إليها "القديس" وفي رواية أخرى يقال أنّ اسمه ابراهيم القهوايجي وكنيته الشاعر الخدوم، وعلى ذكر العصابة لا أسهو عن عناق ذاك العقل المتخفي في شكل كهل بشوش، إنّه رشيد فضيل الكائن الذي يبدو

أنّه لا ينام وهذا يحدث في ورزازات ــ من الحب ما قتل، صدق الشاعر، ففي اليـوم الأخـير صـعد بنا عشاق الشعر والموسيقى وأحباب الإنسان إلى الغيم، وعبروا بنا أحلاما شتّى في شكل قرى ومدن وواحات، وكنت وفيّا ومخلصا " للعصابة " ومـصرّا عـلى إنكـار رؤيتنـا للجبـال في طريـق الحـج إلى ورزازات، لكنّي اليوم أشهد أنّي رأيت الرجال الجبال، وتفيّأت ظلال قامات متحالفـة لنـصرة الحيـاة وبثّ الشعر والموسيقى في عالم تتهدّده أحقاد وظلمات.

رسالة مفتوحة

إلى المواطن العربي

سيّدي المغبون مثلي، تحيّة ثوريّة وبعـد، ارتأيـت بعـد إذنـك طبعـا، أن أقـدّم لـك حلـولا لمشاكلك الشخصية، الاجتماعية منها والعاطفية والمزاجية والغيبية كذلك، ولتعتبرها هديّـة بـسيطة من شخصي المتواضع، علما أنني لا أدّعي جهلك بما سأقترحه عليك، فكلّ ما سأبسطه بين يديك غير خاف عنك، ولكن لنقُلْ أنّها محاولة حميمة للتقرّب منك والاندساس في طوابير أنـصارك المتكـاثرين يوما بعـد آخـر، إذ لم يتـأخّر البـشر والـشجر والحجـر عـن إعـلان غـيرتهم الـشديدة عليـك وعـلى مستقبلك وحريّتك وكرامتك، ومن الغبـاء أن أظـلّ كامنـا في حيـادي، أرجـو فقـط أن لا أكـون قـد أبطأت كثيرا وأضعت هذه الفرصة التاريخيّة التي مـن أسـمائها : " الثـورة " والتـي يتهافـت عليهـا الإنس والجنّ والحي والميّ:

أوّلا: إذا لاحظتَ أنّ الثورة بدأت تحيد عن مسارها وأهدافها قليلا أو كثيرا، فاشتم مبـاشرة ودون تردّد المثقف العـربي واسـتعمل مخزونـك العـربي في فـنّ الـشتيمة، واسـتورد لـه كـلّ الـتهم الجاهزة كذلك، فهو أصل كلّ بلاء وشرّ وتخلّف وانحطاط، ستشعر براحة غامرة فور إفراغك لخزّان غضبك وتوقن أنّ الأمّة بخير وأنّك في أحسن حال...

ثانيا : كلّما نغّصت الزوجة أو الخطيبـة أو الحبيبـة وربّمـا طيفهـا.. حياتـك، وعكّرت مثلا صفو سهرتك وأنت تتابع كما كنت أبـدا مقابلـة كـرة قـدم مـصرية، افتح أقرب نافذة إليك ومن الأفضل أن تكون إلكترونية، وسدّد سبابك إلى المثقـف العربي(الزئبقي الانتهازي المنحلّ الجبان..إلخ) ثمّ عد إلى المتسبّبة في تعكير مزاجك

وابتسم في وجهها ابتسامة مناضل عائد من ساحة النضال، لتضمن رضاها وبركاتها طوال السهرة وصبيحة الغد.. والله الموفّق..

ثالثا: أتعجّب حقيقة من ذهابك إلى طبيب الأسنان كلّما ألمّ بك وجع في فكّك الأيمن أو الأيسر أو في مقّدمة فمك المغلق منذ عقود طويلة، لم تبذّر أموالك عند ذاك الطبيب أو غيره؟، والحال أنّ جلسة نميمة قصيرة مع أحد سكّان المقاهي ستقضي على كلّ ألم فيك، شرط أن يكون المثقف العربي محور الجلسة، وأقترح عليك أن تركّز على حياده المريب طيلة عقود من الطغيان والاستبداد والصمت الجماعي...

رابعا: إن تأخّر راتبك الهزيل أو اقتطعت الدولة فلسا واحدا منه، لا تترك سخطك يقضي عليك، بل ألق به على المثقف العربي، إذ لا شكّ أنّه مدبّر الأمر برمّته، فلقد كان وما يزال مهندس سياسات الحكام في بلداننا ومنفّذها أيضا، ولا بدّ من تكذيب كلّ صوت يشير إلى ما عاناه كسائر المواطنين من مضايقات وتهميش وإقصاء وترهيب طوال عقود حزينة...، إن قمت بهذا الفعل البسيط ستطمئن على حال الأمّة وما جاورها.....

خامسا: سأقدّم لك الآن الدواء الأنجع والحلّ الحاسم، أبشر إذ ستسلم أنت ومن تحبّ مِنْ أحياء وأموات ومن هُم بين بين..، وستنقرض كلّ مشاكلنا وتنقشع غيماتنا الكثيفة الكثيرة بمجرّد أن تعمل بما يلي: يجب أن تنكر جملة وتفصيلا ما قام به المثقف العربي من محاولات لا تحصى، لتحفيز هذه الشعوب المستضعفة على الثورة والانعتاق، ومن الضروري أن تحرق كلّ قصيدة وكتاب ولوحة وفيلم، وكلّ ما تمّ إبداعه في العهد البائد، تشتمّ فيه رائحة الممانعة والتحدّي، أرجو فقط أن لا تتعب، فعمليّة الحرق والإتلاف والمحو، تستوجب جهدا كبيرا ووقتا طويلا، لا يخلو من

الكلـل والملـل، ولـك أن تـسأل ذاكـرة الـزمن ..هـذه المـشوّشة قلـيلا بحكـم الفـوضى والمزايـدات المستشرية في خلايا المجتمع لك منّي أصدق الرجاء بعاجل الشفاء

آخر القول:

" منذ عصر الكهف والناس بخير

يأكلون الأرض والغيب ولا هم يحزنونْ

ولتوطيد العلاقات مع اللذة في كلّ زمان ومكانٍ

يتسلّون بألعاب كثيرةْ

مثل قتل الناس أو ملء السجونْ

هكذا كانوا وما زالوا بخير

كلّ ما في الأمر أنّ الشعراء

لا عفا عنهم ولا عن نسلهم ربّ السماء

يقحمون الناس دوما في متاهات الشجونْ

لعنة الناس عليهم كم يميلون إلى الطقس الحزينْ "

قطّة الجيران

ومحي الدين خريّف

نهاية الأسبوع الفارط وعلى عتبة صباح جديد، عقدت اجتماعا خارقا للعادة مع أمّ أطفالي، تطرّقنا خلاله إلى أخطار كثيرة تهدّد مؤسستنا الزوجية العتيدة، من ضمنها :

ـ ثورة ابننا الأكبر على كلّ شيء تقريبا وخاصة تنديده بتواضع عديد الأكلات التي تُعدّ ولائم باذخة بالنسبة للأغلبيّة الساحقة من الشعب العالمي المتشرّد في الدول الرمليّة وبعض الدول الثلجيّة كذلك..

ـ ضرورة توفير حبل غسيل إضافي لنشر أحزاننا لمن يهمّه الأمر

ـ مراقبة قارورة الغاز المحتضرة والدعاء لها بطول العمر

ـ غلق باب السطح بإحكام تفاديا لتسلّل قطّة الجيران، تلك الشبقة التي سبق لها أن اتّخذت من دولابنا المقدّس حضانة لمواليدها .،. وقد تعيد الكرّة قريبا، بما أنّ كلّ المؤشرات تؤكّد ذلك، مثل بطنها المنتفخ وموائها المتمسّح بالقلب..

وقد أثمر الاجتماع عتابا وديّا وقهوة عربيّة محترمة، لم أحترم قواعد شربها، إذ سكبتها في حلقي على عجل وقصدت مقرّ العمل.

افتتاحيّة النهار كانت معقولة ومقبولة نسبيّا ومشجّعة على اقتراف الحياة، لكنّ خبرا وقحا استوطن أذنيّ واحتلّ كياني كلّه ودمّر أعصابي أو ما تبقّى منها: "وافى الأجل المحتوم الشاعر الكبير محي الدين خريّف، وسيتمّ تسليمه إلى أمّه

الأرض إثر صلاة العصر..."، لقد فقدتُ خلال تململي على ظهر هـذا الكوكـب، العديـد مـن الأحبّـة والإخوان والقامات التي كنت أستظلّ بظلّها، ولكم حزنت مثلا على انسلاخ أمّـي مـن يـديّ، وعـلى فراق صلاح الدين ساسي* وبلقاسم المزداوي**، لكنّ أفول هذا النجم الـشعريّ البـديع ألقـى بي في ظلمة نفسيّة رهيبة، ودفعني في خلوتي إلى البكاء على الإنسان المبدع الذي يقضّي أيّامـه في تهريـب ذاته أو البعض منها إلى بياض الورقة..، الـلـهمّ لا اعتراض على مشيئتك.. لكنّه شجن الفراق ووجـع الفقد....

عصرا، وقفت في مدخل مقبرة الجلاّز مثـل طفـل ضـيّع أمّـه في الأسـواق، كانـت الجنـازات تتعاقب أمامي وأنا أدقّـق النظـر، لعـلّي أظفـر بوجـه أديـب أو مثقّـف يـسير خلـف إحـدى تلـك الجنازات، لأحدّد جنازة الشاعر الكبير محي الدين خريّف، مـرّت دقـائق عديـدة وأنـا أقـوم بـدور المفتّش الحازم دون جدوى، ممّا اضطرّني إلى سؤال بعض المشيّعين وكم كانت صدمتي دامغـة حـين همهم أحدهم وأعلمني أنّني في حضرة تابوت الفقيد..، ماذا؟ هذه جنـازة محـي الـدين خريّـف؟، خمسون شخصا فقط؟، ولا أثر لكاتب أو مثقّف بينهم؟، أهكـذا يقـع تـشييع مـن قـضّى أكـثر مـن نصف قرن في الكدّ المعرفي والجهد الإبداعي؟.. يا خيبة المسعى.

فجأة وقعت عيني على صديق صحفيّ، فهرعت إليـه مـستجيرا بـه مـن غربتـي بـين أهـل الفقيد، لكنّ السحر انقلب على الـساحر، إذ سـبقني صـديقي إلى الـشكوى وأسـقط عـلى أمّ رأسي غيماته كلّها، وكان عليّ أنا الأحزن من جيش مهـزوم، أن أربّـت عـلى كتفـه وأن أخفّـف مـن هـول الصدمة التي ألمّت به، فالمسكين لم يجد مبرّرا واحدا لخلوّ الجنازة من الشعراء والكتّاب ...

قدّمنا التعازي إلى أهل الراحل، وحرصت شخصيّا على عدم التعريف بنفسي، فمن العار أن تكون شاعرا وأديبا هذه الأيام ..، من العار أن تنتمي إلى رهط من الناس مختصّين في الكراهية وإنكار الجميل، ويبخلون باقتطاع دقائق من حيواتهم البائسة لتوديع أخ وصديق ورفيق سفر، علّمهم الحبّ وأنار لهم سبل الإبداع والمعرفة والحريّة..

*صلاح الدين ساسي شاعر تونسي فارقنا وهو في أوج العطاء، كتب الفصحى والدارجة وممّا تركه في ذاكرتنا الجماعيّة: (عدّيت عمْري فِ الكُفوف نْحنّي... وِنْسيت كفّي غْريب ما حنّيتهْ)

** أديب وصحفي ليبي، مات بغتة في حادث سير، سيظلّ صديقي رغم أنف الموت

دعوة لكتابة الحياة

منذ أيام قليلة أهدتني الصديقة الشاعرة التونسية فاطمة بن محمود كتابها الأخير: "إمرأة في زمن الثورة" وقد سعدت بقراءته رغم ضجّة أبنائي وخطب أمّهم التي لا تكفّ عن المطالبة بالحياة ومشتقاتها، قرأت الكتاب إذن وقرّرت تقديمه في حصّتي الإذاعيّة "شرفات على عالم الكتاب"، التي يشاركني فيها باقة من الأدباء التونسيين..، اتّخذت قراري الخطير ونمت مباشرة...

تلك الليلة نمت جيّدا والحقّ يقال أحيانا، وحلمت أنّي الألف وسعدت بذلك، رغم تقطيع لحمي في حلقات النميمة التي يديرها نخبة من أعدائي، وفي الصباح كنت واقفا أمام مقرّ الإذاعة انتظارا لشركائي في الحصّة، مرّ بي منافق كبير وافتكّ من خدّي قبلتين وربّت كذلك على كتفي مهنّئا لي بفوزي " الساحق" في انتخابات مؤتمر اتّحاد الكتّاب التونسيين، ولم يسه عن الادّعاء بأنّه قام بحملة سريّة لنصرتي على " أولاد الحرام "، وأخيرا أنقذني قدوم أحد معدّي البرنامج فاستجرت به من شرّ المتزئبقين، وبعد قهوتين وسيجارتين ومؤامرتين بسيطتين التئم شمل الجميع ودخلنا الاستيديو وانطلقت في تقديم الكتاب وأنا أفكّر في قطّة أفلتت منّي قديما....

قادنا النقاش إلى مسألة أعتبرها، رغم مشاغلي العاطفيّة والشعريّة الكثيرة، في غاية الأهميّة وهي: لم يكتفي الكاتب بصياغة مخزونه المعرفي ورصيده الفكري، ولا يكتب حياته إلاّ من رحم ربّي؟، فالأغلبية الساحقة للأدباء العرب يتحاشون الخوض

في تفاصيل حياتهم الشخصيّة: "مشاغلهم اليوميّة، همومهم العائليّة والعاطفيّة، هواجسهم السريّة، جلساتهم مع الأصدقاء، مؤامراتهم ضدّ الأعداء، مشاركاتهم في الحياة العامة.. سفراتهم.. إلخ"، وهل أنّ الكاتب العربي ليس سوى موظّف لدى الأسرة والقضيّة والدولة والمجتمع؟، بمعنى أنّه أشدّ الكائنات الحيّة والميتة حرصا على السلامة وذلك بإرضاء جميع الأطراف والجهات والحساسيات المختلفة، هذا ما يبدو إذا راجعنا على عجل ذاكرتنا الجماعية وجردنا المدوّنة الأدبيّة العربيّة، فأغلب الكتّاب يمكن إدراجهم في الخانات التالية:

خانة أولى: كاتب يقدّم نفسه داخل كلّ نصوصه ناطقا رسميّا باسم فلسطين والعراق وغيرهما من الجراح العربيّة، ولا شيء آخر.. لا طفولة له ولا عشق ولا شكّ ولا ضعف ..لا شيء على الإطلاق، فهو محرّر الأرض والسماء بالكلمات ولا ذات له حسب ما يريد إشاعته بين الناس....

خانة ثانية: كاتب يعبث بالأبجديّة ويرجم القرّاء بما يشبه الكلمات المتقاطعة، مع الحرص على أن تكون نصوصه باردة جامدة خالية من كلّ روح، ومن كلّ ما يشي بآدميته أو يفضح أنّ بين ضلوعه قلبا وفي جمجمته عقلا.. وأنّ في طيّات جثّته روحا ..، صراحة أشكّ في ذلك تماما، فما يمنّ به علينا بعض " الآلات الكاتبة " يؤكد موتهم الكتابي (على وزن موتهم السريري) والعياذ بالله

خانة ثالثة: كاتب مختصّ في السفر، ليس في متاهات النصّ بل في أحراش الجغرافيا، وإن كنت شخصيّا لا أحسده على التشرّد المريح من إقطاعيّة إلى أخرى، فلي الحقّ كلّ الحقّ في التساؤل عن مدى تغلغل شفرة الكتابة فيه، إذ لم يكتب حرفا

واحدا عن العوالم التي توغّل فيها ولم يدوّن في مقالة يتيمة تحيّة واحدة للشعوب التي تعرّف عليها، لم يعد من سفراته الكثيرة سوى بالبضائع والهدايا وسقط المتاع، والأغرب من كلّ ما ذكرت أنّه مصرّ على التشبّث بصفة الكاتب..

خانة رابعة: كاتب آخر يمكن أن نلقّبه ب " دليل سياحي " فجميع ما حبّره يوحي بذلك، نصوصه عبارة عن زيارات لغويّة إلى خرائب قائمة في تراثنا الشفويّ والمكتوب، ولا علاقة لأخينا بما يحدث الآن وهنا، ولا حتّى مجرّد إيماءة إلى حياة الكائن وما يعتمل في دواخله، كاتبنا الفذّ هذا، منبثق بغتة من ركام الحضارات القديمة ومنقطع عن العالم الحيّ تماما ..ولله في خلقه شؤون

النماذج كثيرة ولكن عليّ أن أوجّه في خاتمة هذا النصّ تحيّة إلى فاطمة بن محمود التي أرّخت للثورة التونسية على طريقتها الخاصة.. وانطلاقا من ذاتها وانفعالاتها، من هبوبها مع الجماهير في الشوارع والساحات، وتململها في بيتها وخوفها على أبنائها واحتضانها للمعتصمين وتحريضها للبشر والشجر والحجر، هذا هو المطلوب من الكاتب حسب وجهة نظري.. فنحن لا نكتب الكلمات بل الحياة.

في مدح الرداءة

نضحك كثيرا أو نحنق تمام الحنق، أثناء قراءتنا لنصوص رديئة أو استماعنا لها، ولكن هل جرّبت سيّدي الضاحك الحانق كتابة نصّ رديء؟ وهل تساءلت يوما عن مدى حضور إبداع ما في اقتراف نصّ تافه وسطحيّ وابن كلب؟... أعتقد أنّنا نتسرّع دائما في الحكم على ظواهر الأمور، ومن ضمنها مسألة النصوص الرديئة السخيفة. ولست أنطق عن هوى أو فراغ أو رغبة في الاعتصام بمقولة "خالف تعرف"، بل لأنّني جرّبت كتابة عدّة نصوص باهتة وسطحيّة، منها ما هو نظم ركيك، ومنها أيضا خواطرُ ساذجة موزّعة بشكل جغرافيّ على بياض الورقة لتؤكّد انتماءها لفنّ الشعر العظيم.

التجربة، كنت مجبرا على خوضها أثناء كتابتي لنصّي المسرحيّ "الأمسية الشعريّة" وكان عليّ أن أكتب بأقلام زمرة من الأشباه المتطفلين على الشعر وربما الحياة كذلك. ولكَمْ كانت معاناتي عظيمة وأنا أحاول صياغة "قصائد" خالية من كلّ ذوق ومعرفة وحسّ وإبداع. لذلك أؤمن اليوم أنّ كتابة الرداءة عمليّة إبداعيّة لا غراب عليها. ومن ضمن ما أبدعته على ألسنة البغال والببغاوات والدمى المتغنّجة، قصيدة الشاعر...

" لكأنّي الذي لستُ أدري

كأنّي البديل الجميل العريض الطويل المريض الفعولُ

كأنّي ... لماذا أقول كأنّي ... لماذا كأنّي أقولُ

أنا سيّد الإنس والجنّ والأبجديّة والْ لستُ أدري

أنا غاية المفردات الحسانِ

ومأوى الخطاطيف حين تكلّ من الطيرانِ

قصير نحيل ككلّ العظام

طويل كحبل غسيل لساني

أنا يا قطيع النظيف العفيف الشريف اللطيف الظريف...الفريد الجديدْ

لا أرى في البلاد سواي

ولكنّها لاتراني

دمي هادر جارف موغل في القفارِ

في يسار اليسار

في القبور التي كالديارِ

وبيت الغزالة عنّي بعيدْ

بعيدٌ ... بعيدٌ ... بعيدٌ ... بعيدْ "

صدّقوني لست بصدد المزاح، فما أصعب أن تهويَ في الدرك الأسفل للغباء والجهل، وأن تظلم الكلمات وتعمد إلى ترصيفها وخنقها ووضعها في غير موضعها.. أفليس إبداعا هذا الجبروت والتعسّف، إضافة إلى عدم الإحساس بالذنب طبعا، مع التنطّع والادّعاء وصفاقة الوجه واللسان والقلم. أرى من يجدون الجرأة الكافية على إتيان مثل هذه السقطات المريعة والنزول على رأس أمّ القصيدة من شاهق الفراغ، أراهم أفذاذا وذواتا استثنائيّة وكائنات رهيبة حقّا.

من حقّنا أن نسخر مـنهم ولكـن مـن واجبنـا أن نقـرّ بتميّـزهم ونحيّـي جـرأتهم الغريبـة العجيبة، ولنا كذلك أن نحسدهم على طمأنينتهم وسكينتهم ووثوقهم الأعمى بما يخربشون...

كتبت في "الأمسية الشعرية" بأقلام عديد البلّه والحمقى، ورسمت كذلك على بياض الورقة المسكينة بأحمر شـفاه قـان، لباقـة مـن اللاعبـات تحـت طاولـة الكتابـة، ممّـن ينافـسن الجرحـى والمعطوبين... الكتاب النازفين لأبهى النصوص، بطريقة لا رياضيّة ولا شرعيّـة ولا غربيّـة ولا شرقيّـة، ويمنعني الأدب من تسمية قلّة الأدب، لننصت معا إلى إحداهنّ لحظة تلبّستُ بها للأسف، فنطقت على لسانها، أو نطقت على لساني سيّان:

" شرقيّ أنتَ

وأنا قطّة مدلّلةْ

ضعني على ركبتيكَ

وهدهدني ...هدهدني

لأحلم برجل آخرْ

****

عجبا

أتحتاج قهوتك إلى السكّر

وأنا بين يديك ..

****

علّقت ثوبي في مقبض النافذة

فأغويت سريري

وتهشّم الزجاج بآهات العابرين

إلاّ أنتَ ..لم تتأوّهْ

فقد كان فمك مشغولا ...جدّا

بأشياء أخرى ..

****

عتبة بيتي ...تضيئها قدماك

كلّما أسريت إليَّ

نصيبُ عتبة بيتي ..قدماك

أمّا نصيبي منك

فَ ...... لنْ أبوحْ

أخاف من أعوان الضرائبْ

****

ختاما

أنتَ فاتحة الهوى

والآخرون الآخرون سقط المتاعْ

فتوغّلْ بي في بحرك العسليّ

وليكن ثوبي الشراعْ

علما بأنّ هذه القطّة العربيّة الأصيلة تدافع بضراوة عن كرامة المـرأة وجـسد المـرأة الحـرّ العالي، وتطالب الرجل بعزم وغلظة أحيانا أن يكفّ عن النظر إليها بوصـفها جـسدا في حـين تقـدّم نفسها في أغلب خربشاتها وخواطرها البائسة وليمة باذخة.

ساعي بريد نيرودا

الرواية القصيدة

ثمّة شعريّة تغيب عن روحي وذهني ردحا من الزمن إلى أن يصفعني بها مثل وردة تسقط على الوجه وبين العينين تحديدا، أحد المبدعين عشّاق الحياة ومستنطقي اللغات الحيّة والميتة، مثل الشاعر الفرنسي الراحل " أوجين قيولفيك " الذي أهانني كما يجب بفداحة نظرته التأمّليّة إلى العالم وإلى شكل إقامة الإنسان فيه، وكان ذلك مطلع التسعينات من القرن الماضي، حين اختليت بباقة من مجاميعه الشعريّة، علما أنّنا جميعا معرّضون للتوبيخ والتأنيب في كلّ غزوة جديدة لكتاب ما، فقد يحدث مثلا أن تعثر العين في مقطع شعريّ مغرور بتكثيفه العالي، معتدّ بما يضمّه من ذكاء إنساني ورهافة روح، فيسقط القارئ وخاصة إذا كان مبدعا ذا نرجسيّة عالية، يسقط من شاهق وهو يردّد المقطع الذي طعنه:

" نحرتني عينا ذاك الأندلسي

فأعدّوا لي كفنا أزرق *"

ويدرك المسكين أنّ العالم يضجّ بشعريّات عديدة لا تحصى، وفي خضمّ اختناقه بحرير الإيماءة وحبل المجاز الجارح، يفقه ولو للحظات أنّ العرب رغم إدمانهم الشعريّ لا يملكون " الحقيقة الشعريّة "، إذ لا حقيقة غير اختلاف الشعريّة بين أمّة وأخرى، وتباين نظرات الأفراد والشعوب إلى الحياة وعناصرها المتشابكة المتداخلة مثل ... لاشيء.. غير الحياة نفسها.

شـعريّات مختلفـة وكثـيرة يـستبطنها الكـائن الإنـساني ويحتـضنها كـلّ شـكل أدبي وفنّـي وإبداعي بما في ذلك القصيدة طبعا، وصراحة أنـا أكتـب الآن وبي خـدر لذيـذ وموجـع أيـضا، فقـد انتهيت منذ ساعات قليلة من " تدخين " رواية الكاتب الـشيلي أنطونيـو سـكارميتا " سـاعي بريـد نيرودا "، التي صدرت منذ أيّام قليلـة عـن دار مـسكيلياني للنـشر، بفـضل جنـون صـاحبها الـشاعر شوقي العنيزي، هـذا الانتحـاري الـذي قـرّر في ظـلّ كـساد سـوق الكتـاب، وفي ملكـوت القطيعـة المستبدّة بين الكتاب والقارئ، أن يحتفي بالأدب العالمي وذلك بالتورّط الاختياري في إصدار الرواية التي " دخّنتها " بشراهة وغبطة شديدة لمبدعها، ورواية أخرى هي " حديقة الصخور" للمذهل اليوناني نيكوس كـازنتزاكي، هـذه العمليّـة الانتحاريّـة الثقافيّـة تنـدرج ضـمن سلـسلة " ألـف راء: علامات في الرواية العالميّة " التي يديرها الروائي ظـافر نـاجي داخـل بيـت مـسكيلياني للنـشر، إذن نحن أمام مجنـونين رائعـين يقايـضان الخـراب بـسلّة ورد، إذ ثمّـة عنـاوين أخـرى كثـيرة في متاهـة مشروعهما العنيد العظيم، ولكن هذه قضيّة أخرى، ولله في خلقه شؤون....

" ساعي بريد نيرودا " قصّة حبّ وجموح وتواضع، حبّ " ماريو " الجامح للزهرة البريّـة " باتريثيا "، وتواضع الكبير بابلو نيرودا في علاقته بساعي بريده البسيط المندلق كجدول جبليّ حـرّ، قـرأت الكثـير مـن الروايـات وهـذه إحـدى الجـواهر التـي أضـاءت ليـل التفاهـة الأدبيـة الـذي أتخبّط فيه، من خلال قراءة كتب كثيرة بحكـم إشرافي عـلى بـرامج إذاعيّـة وتلفزيّـة تعنـى بتقـديم الكتب الصادرة حديثا، وأستطيع القول أنّني توغّلت في متن الاستعارة الباذخة والمجاز الناضج، فروايـة ساعي بريد نيرودا متن الحياة وعشّاقها، متن الـشعريّة الأخـرى التـي لـن يمـسكها إلاّ مـن لـه القـدرة

التامّة على التعلّم من الآخرين، وليس مكتفيا بذاته وسكينته وشعريّة السلف المقدّسة...

نقرأ في هذه الرواية القصيدة مثلا:

" الملح نسيان الأمواج "

" قال لي إنّ ابتسامتي تمتدّ مثل فراشة على وجهي "

" قال إنّ ضحكتي موجة فضّة مباغتة "

" قال إنّه سعيد باستلقائه إلى جوار شابة طاهرة، كأنّه بجانب محيط أبيض "

أمّا أنا فقد قال لي أنطونيو سكارميتا : لا تطمئن أبدا إلى تجربتك وإن اتفق الأعداء والأصدقاء والغرباء على تميّزها، وهمس لي : واصل كدّك المعرفيّ وجهدك الإبداعي فلعلّك تثمر شعريّة جديدة، تضيفها إلى الحياة ... وتعكّر بها مزاج الرداءة المهيمنة على الأرض والأوراق .....

*مقطع شعريّ لشاعر إسباني مجهول

الأنترنات والمتنبّي وأحزان أخرى

و3ذلت 2هل 2لعش9 7تّى ذ9ته

ـ أهلا

ـ تحياتي

ـ كيف الحال؟

ـ الحمد لله

ـ والعائلة..؟

ـ بخير ...، والمعذرة فأنا أعمل الآن، نتواصل بإذن الـلـه....

هذه عيّنة صغيرة من الاختراق اليوميّ الذي نعاني منه جميعا، باستثناء هواة الدردشة على النتّ وتدمير أعصاب الخلق وقتل الإنسان والوقت....

ما أغرب هذه الأمّة صراحة، حتّى المكاسب التي وهبها لها الآخرون، حوّلتها إلى نقاط ضعف ووهن، كيف لا ونحن حوّلنا هذه الجسور التواصليّة والنوافذ المعرفيّة الافتراضية إلى مقاه افتراضية، أضفناها إلى ما لا يحصى من مقاهينا المتفشيّة في كلّ قطر عربي كالسرطان...، نحن أمّة أدب وشعر ..أتفهّم هذه المسألة بل وأفتخر بها رغم الخور الرهيب الذي تشهده الساحة الأدبية العربية، أمّا أن يؤكّد البعض منّا وهم أغلبيّة والحقّ يقال أحيانا، أنّنا ظاهرة كلاميّة ..فهذا ما يحبط ما تبقّى من عزائم ...

ثمّة كارثة أخرى تتكرّر بشكل يوميّ في ما يسمّى بالمنتديات والمواقع الالكترونية، خلاصتها تدفّق موجات " النقد الإخواني " والمجاملات الهابطة والمدح المريع، تقرأ نصّا ما، لا علاقة له لا بالأدب ولا بالحياة أصلا، ثمّ تنزلق عيناك إلى قائمة التعليقات المديدة فتشكّ في ذائقتك الأدبية ومخزونك المعرفي وربّما في إنسانيتك، ويسحبك عنادك إلى الاطلاع على " النصّ العظيم " مرّة أخرى .،، فتنسحب مباشرة بعد قراءته من الموقع الأدبي الذي ورّطتك فيه رسالة إلكترونية من أحد أصحابك، تنسحب حانقا قانطا وبك رغبة في قراءة نصّ عال يرفعك بعيدا عن هذه الفوضى الموحلة...، علما أنّ على كلّ راغب في استدرار عبارات التعظيم والتضخيم، لفت الانتباه إلى إشرافه على مؤسسة ثقافيّة مثلا، أو إدارته لمهرجان شعريّ على سبيل المثال، أمّا الراغبة في نيل شهادات الكفاءة في الخلق والإبداع والإضافة، فما عليها إلاّ أن ترفق نصّها الفريد بصورتها، شرط أن يكون تاريخ التقاطها بعيدا نسبيّا، قرابة الثلاثين سنة، ليس أقلّ من ذلك، أيّام كانت في تمام الإغراء، ولن يتفطّن قطيع الذكور العربي إلى عمليّة التدليس الطفيفة، أمّا إذا كانت المبدعة الفذّة موهوبة في مجال الحسن والدلال والسحر والجمال ولم تعبر بعد حديقة شبابها ... فلا خوف عليها من الضياع في زمن الضباع وتلك مسألة أخرى ... ولا حول..

تصلنا عبر شبكة النتّ من غيمة إلى أخرى اقتراحات غريبة عجيبة، كالانضمام إلى محبّي الشاعر الشاب فلان الفلاني، أو الانخراط في " جمعيّة " الأديبة التي هطلت بها الغيمة الأخيرة..تعبيرا عن شدّة الإعجاب بفداحة محاولاتها الأولى، صراحة لقد بلغ السيل الزبى وطغى الاستعجال على أغلبيّة الأدباء الشبّان والمتشبّهين بهم، وهذه حالة سرياليّة أنتجها الطقس العام الذي يغشى أمّتنا العربيّة

ويفرز مهازل فظيعة في شتّى مجالات الحياة ..، فلا شيء في مكانه ..كما حرصتُ على عنونة مجموعتي الشعريّة الأخيرة...

طويلة قائمة الجرائم التي تقع عبر الشبكة العنكبوتية باسم التواصل والتلاقح ولست أدري ماذا أيضا، ولكن أنكر هذه الجرائم ما تتعرّض له اللغة العربية من محو وطمس ومسخ واختراق مخيف، إذ أنّ نسبة كبيرة من الرسائل الالكترونية والمحادثات الافتراضية تُكتب بحروف لاتينيّة بدل الحروف العربيّة، وتتخلّل هذه " اللغة الهجينة " بعض الرموز والأرقام التي افتكّت مواقع الحاء والقاف والخاء والألف مثلا، وقريبا أيّ بعد جيلين على أقصى تقدير سيقرأ الأحياء منّا طبعا في المجلاّت الأدبيّة والكتب المدرسيّة وغيرها، مدوّنة المتنبّي المغبون " باللغة الجديدة "، ما أبشع أن نقرأ مثلا بيت شاعرنا العظيم :

"وعذلت أهل العشق حتّى ذقته   فعجبت كيف يموت من لا يعشق"

على الطريقة التالية:

و3ذلت 2هل 2لعش9 7تّى ذ9ته   ف3جبت كيف يموت من لا ي3ش9

طبعا مع استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينيّة ... ما شاء اللـه، ولا صيحة فزع...، ما الذي يحدث لنا، وماذا يُراد بنا .. وبالضبط، صراحة إنّ الانقراض أهون من هذا المسخ... ولكن ما باليد حيلة .. أكثر من نزف هذه المقالة ...

ومع ذلك لا يأس مع الحياة، على كلّ منّا أن يتصدّى لهذه المؤامرة النكراء بكلّ ما أوتي من جهد وعناد، كأن يفرض على أصدقائه من الأدباء الشبّان مثلا مراسلته والتواصل معه باللغة العربيّة... وبإمكانه أن يمهلهم ردحا من الزمن ويدعوهم إلى

تعلّم الكتابة بالحروف العربيّة على جهاز الكمبيوتر ... وهذا أضعف الإيمان وقد بدأت بنفسي وحرّضت باقة من أصدقائي الشباب على استعمال الحروف العربيّة .. إن كانوا حريصين على التواصل معي من حين إلى آخر، ولم أكن متصلّبا معهم طبعا، فهم أيضا ضحايا هذا الزمن المتعفّن الموبوء...

لن أنهى مقالتي هكذا، بل هكذا:

آخر ما كتبت، قصيدة نثريّة

" بكلّ فخر سأقول للندامى:

من فرط حبّها لي

تسبّح باسمي في بيتها

لن أتورّط في التفاصيل

إذ لا يهمّ أنّها تنادي في أرجاء بيتها

وفي مدارات أخرى كثيرة

ابنها محمّد."

زلّة العاشق

قلعة تطلّ على الأبديّة وتقصّ على الليل والنهار ملحمة شعب رفض الـذلّ ودافـع ببـسالة أسطورية عن الأرض والعرض والحقّ في العيش بكرامة وفي أحضان الحريّة.....

بيوت عامرة بالكرم والحفاوة تُفتح أبوابها لإخـوة في الكلمـة والـدم، قـادمين مـن أقـاصي الوطن المجزّأ الراغب في الالتئام، قادمين في هيئة الشاعر والقاص والناقد والصحفي ليستظلّوا قلـيلا بنخلة عربيّة اسمها " زلّة " وكنيتها القصيدة، لكنّها ليست ذات الأبيات بل ذات البيـوت الحاضـنة لأهل الأدب والفكر والثقافة .....

خيام تُنصب للغاوين فتعجّ بهم وتصخب بتصفيقهم وهتافاتهم المطالبة بمزيد من الـشدو الشعري الذي يصدح به الشعراء المتوهّجون، الشبّان منهم والفحول، الوردات والأنهار، ففي زلّـة لا فرق بين شاعر وآخر إلاّ بالقدرة على الإدهاش والتحليق عاليا وبعيدا، يعلو الشاعر تلو الآخـر منـبر البوح، ويواجه عشاق الكلمة تحت سقوف الخيام وفي مـدارج المـسرح المفتـوح، بـل إنّ الجلـسات الهامشية في أنحاء "زلّة" حلقات لتبادل أسرار القصيدة وأخبار الأدب العربي من الجرح إلى الحبر....

أرائك مفروشة في فضاءات مدرسية وعلمية وغيرها، وخليّة نحل تتكوّن من شبّان متطوّعين وقامات علمية وإدارية، يتسابقون إلى خدمة العشرات من الأهـل والأهل، فلا ضيوف في هذه البلدة العربية، إذ لا غرباء في المهرجـان، الكـلّ واحـد، والكلّ منسجم مع بقيّة اللوحة، التونسي يتوسّط باقة من الليبيين، والعراقيّ يطلق

موّالا فراتيّا في الفضاء فيطرب له الوفد الجزائري ومن جاوره من أبناء القدر الواحد..، وتصل الهدايا الشعرية المقدّسة: أطباق زاخرة بكلّ ما لذّ وطاب، صادرة من بيوت الشرف والكرم والهمّة العالية، أكلات أبدعتها ربّات البيوت الفاضلات المنتصرات بكلّ ما أوتين من طيبة وعفوية للثقافة العربية، هذه الثقافة المنبوذة من قبل أغلب العواصم والمدن العربية الكبيرة المتطاوسة في هشيم الوطن الكبير، الله ما أروع أن تنتصر " زلّة " للأدب والفكر في زمن يحرّض الجبال على الانحناء والقنوط والتلاشي.....

الكثيب ونعومة الرمال والشاي الليبي الساخن، والليل الصحراويّ المستسلم لنهار من الأضواء الكاشفة، ولصخب العائلات والخلاّن، ولجموح الشعراء المتداولين على المصدح المتحالف مع بوحهم وشطحاتهم، ترى كيف وجدت الجرأة تلك الليلة على تنشيط "معركة الفحول"؟، بقدمين طليقتين من كلّ حذاء، وبدهشة طفل تجاوز الأربعين حدّثت البدو بما في قلبي من فرح واحتفاء بالحياة، وخاطبت الشيوخ المقرفصين على بعد جذع نخلة من المصدح ومن أناي المغروسة في الرمل، ولعلّي تلعثمت قليلا أو كثيرا، لكنّي متأكّد من أمر واحد: كم كنت حرّا وعاشقا ومنطلقا ومنسابا ونابضا وحيّا بين أهلي الذين أعرفهم ولا أعرف أسماء إلاّ البعض منهم ...

أنا الآن بين أهلي الآخرين، أتفقّد فراخي وأمّهم في جوف ليل محايد، وأكتب عن بلدة تبعد عن مدينة تونس العتيقة بمئات الكيلمترات، لكنّها كامنة فيّ أيضا، وفي انتظار أن أذهب بها إليها، يوم الجمعة 8 أكتوبر الجاري، أقول لها عنها:

" زهرة تستحي من شذاها

وتقتل من غير قصد

بعينين أفدح من كلّ ليل عظيمْ

ولا شيء آخر يا كلمات

فنامي مع الشكر

إنّي بفضلك أسكتّ جوع الحنينْ "

قصّوا جناحيه

وقالوا له : طرْ...

فلان الفلاني مبدع كبير، لكنّه مقلّ، هذا ما دأب على اجتراره عديد النقاد والمتابعين للمشهد الأدبي التونسي والعربي ككلّ، يردّدون هذه الجملة الغريبة العجيبة بشتّى الطرق والأشكال، وفي كلّ منبر يبركون عليه، ولم يشر أحد من هؤلاء المتخمين نوما والمدمنين على جميع وسائل الراحة والرفاهة والكسل والخمول، لم يشر أحدهم إلى الوضع السريالي الذي يتخبّط فيه أغلب الكتّاب العرب من الملح إلى القيح، ولم يقترح أحد هؤلاء الأمناء على الأدب العربي توسيم كلّ مواطن عربي يجد القدرة على رفع القلم في زمن الضيق والتضييق والتصفيق والتلفيق.

أعرف العديد من المبدعين في تونس والوطن العربي ممّن استقالوا من وجع الكتابة وخيّروا مصارعة رغيف الخبز وقارورة الغاز على تحبير أوراق ونشرها في الريح، إنّ ما يقاسيه الأديب العربي أكبر من أن تضمّه مقالة، ومع ذلك لابدّ لي من ترك شهادتي على هذا الخور قبل فراري إلى قبر أوسع ولا شكّ من الفضاء الثقافي والأدبي العربي، أنا لا أنكر أنّ عالم الكتابة تراتبي ككلّ مجال آخر من مجالات الحياة الكثيرة، ولكنّي أصرّ إلحاحا على ضرورة توفير الأرضية المناسبة لكلّ موهبة إبداعية كبيرة، وبي إيمان لا لبس فيه، خلاصته أنّ التجارب الأدبية العظيمة التي فرضت نفسها وتجذّرت داخل دائرة الأضواء والشهرة، توفّرت لأصحابها السياقات الملائمة وصادفتهم رياح مواتية ودعّمتهم أقدار وظروف ومناخات اجتماعية وسياسية ..وتفاصيل حانية وعطوفة ومتحالفة معهم.

قال المسعدي "الأدب مأساة أو لا يكون"، وقد تصدّى لتفسير هـذه المقولـة صـعاليك لهـم هيئات أدباء وشعراء خاصة، صعاليك ينظّرون للبأس والتشرّد والتسوّل والخصاصة، فحوّلـوا وجهـة مقولة المسعدي إلى غير مقصدها، فالمأساة التي أشار إليها أديبنا الكبير هـي محنـة الوجـود وقلـق الإقامة على ظهر هذا الكوكب التائه بين المجرّات، وليس العيش بين مخالب الحاجة وتحت ضـغط الفقر وفوق نار الكراء وفواتير الحياة الكثيرة، نعم أنا مـن الـداعيين إلى رفـع تكـاليف العـيش عـن المبدع وإلى تفرّغه التام للكتابة والخلق، ولكنّ هذه الدعوة هي للجهد الإبداعي والكدّ المعـرفي ولا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد بـالمنظّرين للبطالـة والكـسل والعـيش عـلى حـساب النـدامى والمجتمع ككلّ .

أعتقد أنّ تجربة عظيمة مثل تجربة محمود درويش مثلا، ما كـان لهـا أن تولـد مـن ذاتـه المبدعة، لولا توفّر أسباب كثيرة منهـا الاجتماعـي والنـضالي والـسياسي والـسياق التـاريخي خاصـة، وللتوضـيح فقـط، لـست بـصدد التـشكيك في فداحـة الموهبـة الدرويـشية ولكنّـي صراحـة أشـير إلى ما لا يحصى من المواهب الصافية التي تمّ تجفيفها وما تـزال عمليّـة التجفيـف متواصـلة في نسق حثيث وعلى مرأى اللئام والأيتام، لنضرب مثلا على ما أقول، ونقـارن بـين مبـدعيّن عـربييْن يختلفان كليّا في ظـروفهما الحياتيـة اليوميـة، الأوّل يـصحو متـاخّرا نـسبيّا، ويفتـتح يومـه بباقـة الصحف وفنجان القهوة وابتسامة من يقوم بخدمته في جنّته البعيدة عن الغوغاء ووجع الـرأس، يتصفّح الجرائد ويرتشف القهوة، ثمّ يقرأ ما تيـسّر مـن الإبـداع الإنـساني، إلى أن يجـد في نفـسه هوى وميلا لكتابة فكرة جديدة، فما عليـه سـوى أن يـستهلّ الحفـر في حقـول اللغـة وغياهـب الذات، فليس له من هاجس آخر سوى الكتابـة ولا مواعيـد لـه مـع التزامـات الحيـاة البغيـضة،

أمّا الثاني، موظّفا بسيطا كان أو مديرا عظيما، فعليه أن ينهض باكرا ويـسلّم نفـسه للآخـرين، مـن نسمّيهم عادة أفراد المجتمع المدني، فيبدّد مجبورا طاقته الذهنية والجسدية في مسائل بعيدة عـن حدائق الإبداع، بُعد الشيخ الخرف عن حبيبته الأولى القاتلة المشتهاة...، خلاصة القول أيها القـساة : رفقا بالأديب العربي، لا تحمّلوه ما لا طاقة له به، ففاقد الشيء لا يعطيه...، فاقد الصفاء الـذهني والوقت اللازم للقراءة والكتابة ... لا ينتج غير القليل، وهذا منّ منه على هذا الخراب العظيم، هذا إن لم يكن أغلب ما يصدر عنه ليس سوى صراخ وصياح وعويـل أدبي احتجاجـا عـلى الورطـة التـي وقع فيها ...، قصّوا جناحيه وقالوا له : طرْ...، وهذه هي القسوة بعينها ...بل بعينيها .

القصيدة وعصر المشهديّة

" أنا سعيد بوجودي بينكم "

هههههههههه

لا يختلف المشهدان الأدبيان في ليبيا وتونس في شيء تقريبا، تتغيّر الأسماء وعناوين الإصدارات وزوايا النميمة والتشكيك والعرقلة، ولكنّهما متشابهان إلى حدّ التطابق في ظواهر عديدة، من ضمنها القطيعة المتفاقمة سنة إثر أخرى بين الشعر وجمهوره، وتحوّل الأمسيات الشعرية إلى حلقات ضيّقة يحضرها الشعراء المشاركون في الأمسية ومدير الفضاء الحاضن لها وحارس الفضاء إن لم تكن التلفزة تبثّ مقابلة كرة قدم يومها، إضافة إلى اثنين أو ثلاثة ندامى لأحد المشاركين في حفل تأبين القصيدة.

هذا الوضع الحزين ينطبق على جلّ الأمسيات التي يتمّ تنظيمها من أقصى غرب تونس إلى أقصى شرق الجماهيرية، وخصوصا في مدننا الكبرى، فما يزال للشعر في القرى والأرياف بعض مناصرين وحلفاء، أمّا سكّان المدن فقد انفضّوا عنه وعن أبيه وسلالته، تاركين الشعراء للتململ والتذمّر والبكاء على فنّ القول العظيم، دون أن يتساءلوا يوما واحدا عن سبب هذا الهجر الجماعي، ودون أن يفكّروا في البحث عن وسائل وقنوات جديدة لربط الصلة بالمتلقّي .

تعبت شخصيّا من الوقوف على المنبر وترديد التحيّة المهترئة:

"سعيد بوجودي بينكم، وإنّه لشرف لي أن أقرأ ما تيسّر من الشعر في هذا الجمع الكريم..." ثمّ أرجم الشعراء المشاركين المكوّنين لجمهور الأمسية بقصائدي التي حفظوها عن ظهر قلب، من فرط سماعهم لها..، إثر ذلك أعود إلى مكاني لأقود بدور المتلقّي في غياب الغاوين وعشاق الشعر، ويتداول على المنبر زملائي في الشعر والحزن والقرف ونمرّ فرادى وزرافات إلى مكتب المدير لنتناول " الكاشي " من يده الكريمة...هذا وضع بائس لابدّ من تجاوزه بشتّى الأفكار والحلول الممكنة، شخصيّا فكّرت في خلاصي من الورطة المخزية، وذلك بأن وجدت لقصائدي فضاء آخر وجسرا مبتكرا للتواصل مع الجمهور واستدراج القرّاء، وقد نجحت في مسعاي يوم أدركت أنّ المشكلة لا تكمن في الشعر بل في طريقة تقديمه لسكان القرن الواحد والعشرين، مدمني الصورة والمولعين بالمشهدية، في زمن هو عصر الفرجة بامتياز.

بدأت في تنفيذ الفكرة منذ سبع سنوات، أغويت بعض الموسيقيين والمسرحيين الشبّان وصعدت معهم إلى ركح إحدى دور الثقافة وانطلقنا في حياكة عمل فرجويّ، خيوطه الشعر والمسرح والموسيقى وباقة من الأغاني ذات المنحى الطربي، إضافة إلى الفنّ التشكيلي بفضل انضمام الصديقة راضية الدويري إلى الحلم، وهي مختصّة في الابتكار الفنّي المستوحى من التراث التونسي، وقد كان لي ما أردت فور خروج العمل الأوّل للناس، لم أعد أقرأ شعري أمام " نخبة " حزينة من المبدعين الحزانى، بل جبت البلاد من شمالها إلى جنوبها رفقة حلفائي المجانين وأعدنا إلى الشعر بريقه وحضوره القويّ وذلك بإعادته إلى مهده الأوّل، ألا وهو المسرح، وبتلاقحه مع فنون أخرى كالموسيقى والفنّ التشكيلي، وقد لاقى العرض

نجاحا محفّزا لمواصلة التجربة، وها إنّي اليوم رفقة كلّ من الفنان مروان سامر والمطربة الصاعدة وئام القصيبي، نستعدّ للقيام بجولة كبيرة في أنحاء تونس لعرض العمل الفرجويّ الجديد " الحكاية... بين ثلاثة "، وذلك بفضل انتشار الفكرة كالنار في الهشيم ونجاح العروض الثلاثة السابقة في استقطاب الجمهور، وهذا ما حفّز المشرفين على الفضاءات الثقافية والمهرجانات الفنيّة على برمجة العرض في فعالياتهم خلال الصيف وفي شهر رمضان الكريم ....

خلاصة ما أردت تبليغه إلى أصدقائي الشعراء في تونس وليبيا وفي الوطن العربي ككلّ ، هو ضرورة التصالح مع عصرنا الحاضر، فمن غير المعقول أن نصرّ على تقديم الشعر، بالشكل " التقليدي " الذي عفا عنه الزمن، ومن الظلم أن نطلب من إنسان اليوم حضور أمسيات شعرية لا تجديد في شكلها ولا مضمونها، وتطغى عليها الرتابة وتكرّر المشهد الواحد " شاعر يقرأ جالسا أو مستندا إلى منبر" ونحن نعلم أنّ الكائن الإنساني تحوّل إلى عين كبيرة تشاهد كلّ دقيقة مئات المشاهد والصور، ولا سبيل لإغواء الجمهور إذا واصلنا عنادنا اللا مبرّر له، وإصرارنا على "السلام عليكم، أنا سعيد بحضور هذا العرس ..." وما هو سوى مأتم رتيب وبائس وخارج السياق الحضاري ..، أرى أنّ علينا اليوم البحث للقصيدة العربية عن فضاءات أرحب من الورقة ومن منابر "الأعراس الشعرية "... ابتسموا إنّ القصيدة معنا وهي قادرة على التأقلم مع عصر المشهديّة والصورة ... فهو عصر الإنسان .. والشعر هو الإنسان ...

من قوانين

"جنّة الحيوان"*

ـ كلّ من يشتم رأسا من قطيعي، يتّخذ من شتيمته ترنيمـة، يواظـب عـلى ترديـدها أثنـاء الليل والنهار والصحو والسكر والأكل والنكـاح، حتّـى أأذن لـه بـالكفّ عـن هرائـه، وقـد تـشغلني مهامي الجسيمة المقدّسة أيّاما ولياليَ وشهورا ..لكنّي لا أنـسى أبـدا، فمـن كـان مـنكم ينـوي سـبّ الآخر، ليتوكّل عليّ ..، لن يكره القذف والشتم، بل سيمقت النطق أصلا، فيرتاح ويريحنا.

ـ كلّ ذئبة يتخاصم عليها اثنان أو أكثر، أحيلها إليّ، وتمكث بـين يـديّ مـا شـاءت عنـايتي، وبهذه الطريقة، ستجدون مخارج لـصراعاتكم وحلـولا لنزاعـاتكم، تتقاسـمون الـشيء أو تتـداولون عليه ..، أو تتنازلون عنه لأشدّكم عنادا.

ـ كلّ من يقطف تينة واحدة، أو أيّ نوع آخر من الثمار البرّية دون إذني، هو سارق وابـن لصّ وحفيد قاطع طريق ...وقيسوا على ذلك، ومع ذلك لن نقطع يده، ليس حبّا فيه ولا رأفـة بـه، بل لأنّ العقل هو الذي يسرق وليس اليد، وبإمكان مـن نقطـع يـده وجميـع أطرافـه إن شـئنا، أن يسرق وهو متّكئ كالزير ومبتسم لنا، فالعقل المدبّر المستتر أخطر من اليد العارية المفضوحة، وكم من هَرِمٍ ومشلول حرّك آلاف الأيـدي الناهبـة...وجنّـدها لتغذيـة أرصـدته البنكيـة ....، الـسارق في جنّتنا، يُجبر على أكل كلّ ثمار الشجرة التي اختلس منهـا الثمـرة الغاويـة، فـإن لم يُـصب بالتخمـة، يحال إلى شجرة أخرى، إلى أن تندلق الثمرات مـن فمـه، وتتـدافع مـن أذنيـه، وتنبثـق مـن عينيـه

ومن كلّ ثقوبه، حينها يُلقى في حوض الغياب، ويترك هناك الفترة الزمنية الكافية ليشرب من خلال مسامه، بعد أن ازدحمت وانسدّت جميع ثقوبه، كما أشرت إلى ذلك سابقا ...، أوووف..، كم يعزّ عليّ فراق الدقائق المتتاليات وأنا أسنّ القوانين وأشرح التشريعات، بدل من محاورة خدّ لبق، ومجادلة نهد متعجرف، وإفحام شفة متنطّعة جهولة..، على كلّ، يُشوى السارق المتخم، بعد تفشّي سائل الغياب فيه، ونكون بالتالي قد اكتشفنا طريقة إعداد أكلة جديدة : " لصّ محشوّ بالغلال "....

ــ كلّ من يرشو أحد ذئابي بشيء ما: قطعة لحم، حبّة تين أو زعرور، عشبة طريّة يانعة، لينال منه أو بواسطته لذّة ما، أو ليساعده على القيام بفعل ما، يكرّر تقديم الرشوة ذاتها، ما شاء مزاجي، وحسب ما تسمح به رزنامة مسؤولياتي، علما أنّها خالية تقريبا من عُطلِ التفكير في المذنبين، ولكن من حسن حظّكم أنّني محروم من النسيان...، أمّا المرتشي، فيقوم بحراسة الرشاوى المتهاطلة عليه، دون منعه من ممارسة جميع أفعال الحياة، كالأكل والشرب والتلاقح، ويظلّ يحرس الأمانة، حتّى أأذن بإعداد وليمة منها على شرف القطيع، وهذا تعبير مجازي صرف..، ولن نحرم المرتشي والراشي من تذوّق نزر ضئيل من البضاعة المحجوزة، وذلك دراً للعين وتفاديا لإيلامهما، فلا مكان للألم في دولة اللذة ...

ــ كلّ من يكذب، بيضاء كانت الكذبة أو حمراء أو مرقّطة، لا يهمّ، فالكذب هو الكذب، يقضّي فترة زمنيّة مفتوحة، يحدّدها مزاجي، في ترديد نصّ الكذبة، وآمل أن يكون محظوظا، فلا يتورّط في كذبة طويلة أو نهرية، مثلما كانت تسمّى الحوارات الصحفيّة البالية..، أعلم أنّ الكذب متأصّل فيكم، وأمحضكم النصح، كثّفوا إن وقع المحظور، وغلبتكم شهوة الكذب، اكتفوا بجملة قصيرة، كأن يزعم أحدكم أنّ " الرقم

كذا عضّ ظلّ الرقم كذا " أو أنّ " الذئب ...راود الجرو... "، ما أرأفني بكم، أحاول جاهدا جرّكم إلى تفادي الكذبات المديدة أو الشاهقة، فلكم سيكون ترديد جملها وجميع حروفها ونقاطها وفواصلها التنفّسية، مزعجا للمذنب منكم يا أبنائي ......

ـ من يشهد زورا وبهتانا في نزاع ما، أسلّط عليه العقوبة التي كادت تقع على رأس المظلوم المفترى عليه، وآمل ألاّ تكون القضيّة متعلّقة بجريمة بثّ المعرفة وإفشاء الوعي، من خلال توزيع معلومات ثقافية، فعقوبة تلك الجريمة الشنعاء المحو من نصّ الوجود، وسأكون مجبرا على تنفيذها وتطبيقها على الشاهد الكاذب، في حال ثبوت براءة المتّهم...وقد أعذر من أنذر....

*جنّة الحيوان : روايتي الصادرة حديثا ....

طعنتان

من الماكر الغادر

أقترح أن نموت جميعا دفعة واحدة، كي لا يحزن أحد على أحد، وحتّى لا يشمت الموت فينا وهو يتابع بشغف جمّ ذهولنا وبكمنا وعجزنا عن ردّ الفعل، إذ أقصى ما بوسعنا فعله هو الكتابة، في محاولة بائسة لتخليد من نحبّ، وهذا ما أنا بصدد فعله، أردّ على طعنتين وقحتين سدّدهما هادم اللذات ومفرّق الجماعات لي ولآلاف من الغاوين والمثقفين .

الطعنة الأولى تلقيّتها وأنا في مدينة قفصة الجنوبية، في طريقي إلى الجزائر للمشاركة في ندوة أدبية، اخترقني صوت الشاعر شمس الدين العوني من خلال الهاتف الجوّال: " ماتت رشا ابنة الشاعر يوسف رزوقة وهي تستعدّ لوضع مولودها"، نحرني الخبر ووجدتني مدفوعا إلى ترديد الحوقلة بصوت عال، أمام حيرة وفزع الصديق الصحفي الطيّب الجمازي، لم ينتبه أحد من المارّة وباعة كلّ شيء في محطة سيارات الأجرة، ولم تتوقّف الحياة لحظة واحدة احتجاجا على هذه الحركة اللصوصيّة الغادرة، وحزنا على رشا ابنة الشاعر وصديقته وحليفته، لم يكترث حجر ولا شجر ولا بشر بالمصاب الجلل، وكأنّ شيئا لم يكن، فسحقا لهذه الآلة الرهيبة المسمّاة الحياة، لا يوقفها تصدّع الشاعر، وتلاشي وردته من يده، لم أكن قادرا على مهاتفة يوسف ولكنّي أقدمت على ذلك، إذ كان لابدّ من مواجهة نكبة الشاعر ويا ليتني ما فعلت، أنا أعرف يوسف منذ أكثر من ربع قرن، عرفت فيه الرجل المتماسك الهادئ، والعقل الرصين المسيّطر على كلّ ما يصدر عنه، ولكن لم يصلني من صوته غير همهمة قصيرة تلاها بكاء شاعر على فقدانه لأجمل ما لديه، لقد سرق الموت

أبهى قصائده وأروع حبيباته ... لقد افتكّ منه رشا وهي تستعدّ لتزهر وتتفرّع ...، ما أقسى سماع عويل الأب وشهقاته، ولكم كانت المسافة الفاصلة لمدينة قفصة عن ولاية الوادي بالجزائر موحشة وحزينة، ولولا انضمام بعض الأصدقاء من ليبيا وتونس إلى الوفد ومقاسمتهم لنا مرارة الفاجعة لما استطعت مواصلة الرحلة .

شاركت في ندوة " الترقية الاجتماعية " التي نظّمتها جريدة " الجديد " بمناسبة احتفالها بمرور سنتين على تأسيسها، وقد خفّف من حنقي على الموت وحزني على مصاب الصديق يوسف رزوقة، تواصلي مع أصدقاء جدد من الجزائر وليبيا، لقد كانوا حقّا هديّة من السماء أنستني ولو لفترات زمنية متقطّعة طعنة الموت ليوسف ولكلّ من يعرف وردته رشا.

في طريق العودة، وفي الحدود الجزائرية التونسية تحديدا، نزل عليّ خبر صاعق آخر، دفع أعوان الجمارك التونسية إلى أن يربّتوا على كتفيّ حين علموا ما علمته وألمّت بوجهي فجأة سحابة من الشحوب : رحل الشاعر محجوب العياري، هكذا بغتة، رحل وهو في أوج عطائه ونضجه، رحل وهو يستعدّ لتخطّي عتبة الخمسين بدهشة الشعراء الكبار، فيا لفداحة ما أصاب الشعر التونسي، لقد فقدنا مبدعا له قدرة عجيبة على تطويع المعاني وبثّها في الكلمات، ماذا يمكن أن يقول المرء وهو يتلقّى الطعنة تلو الأخرى من هذا الماكر الغادر أبدا، هل أفيض بتنهيدة الجواهري:

" ذئب ترصّدني وبين نيوبه   دم إخوتي وأقاربي وصحابي "

أم ألتفّ للحياة وأقول لها ما عوى به مفتاح العماري :

" أيتها الذئبة خذيني من فمي "

أعتقد أنّني أميل إلى عواء العماري، وسأكتب قصيدة جديدة .....نكاية في الموت

كيف تكون شاعرا

ليس سهلا أن تكون شاعرا في هذا الزمن الصعب، زمن التعليب والتنميط والنسق الرتيب للحياة، إضافة طبعا إلى صرامة المؤسسات المهيمنة على المجتمع المدني بدء بالمؤسسة الزوجية، لذا عليك أن تثق بي وتأخذ بجملة النصائح التي سأتبرّع بها حبّا في الشعر والشعراء :

1 ــ عليك قبل كلّ شيء أن تطلّق الأهل جميعا وليس الزوجة فقط، ولابدّ من إعلام الأمّة بهذا الإنجاز التاريخيّ الذي يشمل في تفاصيله إهمال العيال وتجويعهم وتسليمهم ليد الضياع، فلست مسئولا على أيّ شيء عدا العناية بالقصيدة وإسعاد قرّائك الذين سيتفاقم عددهم نصّا إثر نصّ ......

2 ــ يجب أن تقيم في إحدى مقاهي الواقعة في سرّة الساحة الشعرية وأن تستوطن الحانات المجاورة لها وأن تتسوّل السيجارة والقهوة وغيرها من السوائل، كما يجب عليك أن تتسلّح بالوقاحة والخبث والإدّعاء والصياح والزعيق في وجه كلّ من يجرأ على منعك من التطفّل على طاولته......

3 ــ لابدّ من إهمال مظهرك وعدم الاكتراث بقذارة هندامك، فأنت حليف باطن الكائن ولست من أنصار القشور، ثمّ إنّ تشعبّ ذقنك وتلبّد شعر رأسك وتجهّم حذائك من شروط الإبداع والخلق والإضافة، لست من البرجوازية الجديدة ولا من الكتّاب المرتزقة ذوي البدلات الأنيقة والعبارات المهذّبة، أين منهم ما ستكتبه يوما ما، بعد أن تنضج الفكرة فيك، ويثمر تسكّعك في الخراب العظيم ...

4 ــ كن أذنا كبيرة تلتقط أدقّ ما يتفوّه به الندامى والعاطلون عن الحياة، واحفظ جيّدا عناوين أمّهات الكتب وبعض الأسطر الشعرية والجمل البلاغية والشعارات الثورية، لن يكتشف أحد أنّ ثقافتك شفويّة، في خضمّ هذه المدن المكتظّة بالراكضين والمذهولين واللامبالين بشيء، سوى فداحة موهبتك التي لم تهبّ على العالم بعد، ولكنّها حتما ستهبّ، وتغيّر وجه الأرض وشكل إقامة الإنسان فيها....

5 ــ لا بأس من تأبّط رواية " غابريال قرنفل وقرفة " لجورج أمادو " مثلا، أو ديوان أحد الشعراء العظام كأبي نواس أو المتنبي أو حوّل الوجهة نحو الغرب وتأبّط "أزهار الشرّ" أو "الجريمة والعقاب"، فمثل تلك الكتب أدلّة وحجج دامغة تؤكد ضخامة مخزونك المعرفي وإن كنت لم ولن تجد الوقت لقراءتها بحكم تكريسك لحياتك المقدّسة لسكب السوائل في باطنك الخاوي، ولكن لا بأس إن عملت بنصيحتي التالية : لابدّ من تمرّنك اليوميّ على الحذلقة اللفظية وعلى السفسطة لتتمكّن من مراوغة كلّ من يحاول الإيقاع بك وتأكيد جهلك للناس وعلى رأسهم القرّاء الذين لم تصلهم منك سوى بعض الخربشات إلى حدّ الآن ولكنّهم متفهّمون لوضعك ومؤمنون بك أشدّ الإيمان، فأنت فلتة زمانك وتاج عصرك، ثمّ إنّك الكائن الحرّ المتمرّد على القوالب الجامدة والمؤسسات جميعها، تلك التي تعمل على تشييء الإنسان المبدع ....

6 ــ لا تنس في النهاية أن تتابع إصدارات الكتّاب في الشرق والغرب وتطوّر تجاربهم سنة إثر أخرى، وتسامق قاماتهم الإبداعية لتفقه أنّ الشعر والكتابة عموما كدّ يوميّ وجهد مضن ومتواصل وليس استرخاء في المقاهي واستمناء لغويّا في

الحانات، ولكي تدرك أنّ جميع نصائحي التي (عملتَ بها قبل أن أطرحها عليك)، ليست سوى جسور للوهم والضياع والتلاشي ......، وآخر ما أهمس به لك ولأمثالك من صعاليك متشبّهين بالشعراء : لا فرق بين إبداع قصيدة جميلة وتربية طفل ناجح في حياته ومتماسك نفسيّا .... لن أهمل أسرة لأنظّر للجمال والحبّ، فلا علاقة للشعر بمثل ما ذكرتُ من الأفعال الهدّامة المخرّبة للنفس ومن حولها من كائنات رائعة وبهيّة......

احترقت مكتبة

لم أعرف الراحل عن قرب، لم يجمعني به غير نصّه الشعريّ الجميل، مرّ ربع قرن على انغراسي في الساحة الثقافية التونسية ولم أدن من جعفر ماجد إلاّ في مناسبات قليلة نادرة، ولم تكن تلك اللقاءات العرضية الخاطفة مبرمجة، كما لم يجد كلانا ميلا كبيرا في نفسه للآخر، كنت كلّما صادفته في ندوة أدبية أو تظاهرة ثقافية في أنحاء البلاد، أحيّيه بأدب جمّ ولكن على عجل، وكان يردّ على تحيّتي بأحسن منها وعلى عجل كذلك، فلا نتبادل غير كلمات وجمل مقتضبة، تدخل في باب المجاملة ..، هكذا كان الأمر إلى أن استضفته منذ سنتين تقريبا في حلقة من حلقات برنامجي التلفزي " كبار الحومة " الذي يعنى بتسليط الضوء على حيوات ومدوّنات القامات الإبداعية والفكرية التونسية..، طرقت بابه صحبة الفريق التلفزي فرحّب بنا وأفرط في الاحتفاء بنا وتكريمنا وكان ذلك أوّل تكذيب لما يُشاع عنه من بخل وشحّ، ثمّ انطلقت في محاورته ومشاكسته واستدراجه إلى مسائل كثيرة تتعلّق بأدبه وحياته والمشهد الأدبي ككلّ، فعاينت رحابة صدره وسعة ثقافته وشدّة تواضعه، إضافة إلى عدم تنكّره لبداياته وللوسط الاجتماعي الفقير الذي ترعرع فيه، كما يعمد إلى ذلك العديد ممّن يعرفون المجد والنعمة بعد أن كانوا في الدرك الأسفل من البؤس، وهذا ليس عيبا، بل العيب كلّه التنكّر للأحضان التي حمتهم من جوع وخصاصة وتشرّد، وكنت وأنا أستمع إلى اعترافاته الحميمة الصادقة، والطافحة بالوفاء لأسرته ولكلّ من ساهموا في إنارة سبيله وفتح أبواب المعرفة في وجهه، كنت أراجع الشائعات التي يتقنها سكان المقاهي ومستوطنو الزوايا المظلمة، وأتعجّب من خلق الله وقدرتهم

علـى الافـتراء والكـذب، فلقـد ألـصقوا بـه تهـما عديـدة مـن ضـمنها الغـرور والتـبجّح وضـيق النفس.

عرفت في ذلك الحوار التلفزي الذي أعيد بثّه إثـر وفاتـه وفي أربعينيتـه، خفايـا كثـيرة مـن شخصية هذا المبدع الذي كاد أن يُحرم من التعليم في طفولته، واطّلعت على عذابات صباه وشبابه الأوّل، وكيف ناضل وكدّ واجتهد ليصل إلى المكانة التي بلغها في الساحة الأدبية والفكرية التونسية، وها إنّي اليوم أكتب عنه بعد رحيله وبعد حضوري لأربعينيته في مدينة القيروان يوم 22 من الشهر الماضي، التي نظّمتها وزارة الثقافة بالتعاون مع اتحاد الكتّاب التونسيين، أكتب عنه تقديرا لمـسيرته في تشعّبات الحياة، وتثمينا لمدوّنته الشعرية التي أعتقـد أنّهـا الأهـمّ والأعمـق والأرحـب، مقارنـة بمدوّنات أبناء جيله، فلقد تميّز شعره بسلاسة عذبة وبالصور المبتكرة الجميلة، وخاصة بقطعه مـع الـنظم الجـاف، رغـم أنّـه مخلـص كـلّ الإخـلاص للكتابـة العروضـية في شـكليها: القـصيدة الحـرّة والقصيدة العموديّة، ومن ضمن ما ترك لنا جعفر ماجد، قصيدة " الـساحرة " التـي أدّتهـا بامتيـاز المطربة الراحلة " عليّة "، يقول مطلعها :

" لأنّك لم تعرف الحبّ قبلي

لأنّ النساء على كلّ لون وشكل

لأنّ البساتين لا تنبت الورد في كلّ فصل

وأنّ الطبيعة لا تمنح الخصب في كلّ حقل

لأنّي أحبّ بعنف

وأطلب في العنف مِثْلا بمثلي

فإنّي سأقتلك اليوم حبّا

وحبّك يعني كذلك قتلي "

يمكنني القول بثقة بالغة وبحسرة شديدة أنّ تونس والوطن العربي فقدا مبدعا كبيرا، وشاعرا فذّا استنطق ذاته والكلمات والعالم وأخلص لوطنه وأمّته وتغزّل بموطنه القيروان، فأغنى المدوّنة العربية وقدّم الإضافة، وأختم هذه الالتفاتة إلى الشاعر الراحل، باستحضار مقولة معبّرة يردّدها الأفارقة كلّما اختلس منهم القدر أحد " الكبار": (لقد احترقت مكتبة).

تحيّة إلى روح الطاهر الهمامي

أين منّا رحابة الصدر

من أهمّ التيارات الأدبية التي عرفتها تونس، خلال القرن الماضي، حركة "غير العمودي والحرّ"، وقد دام وجودها الفعلي أربع سنوات من 1968 إلى 1972، ومن الأهداف الرئيسة لهذه الحركة تفجير القوالب الجاهزة للكتابة الأدبية، وتونسة الأدب وتطعيم النصوص باللهجة الدارجة، وغير ذلك من الأهداف " الثورية "، ولكنّي أعتقد أنّ الحركة نجحت في التنظير لمشروعها، وفشلت فشلا ذريعا في تطبيقه، هذا بغضّ النظر عن استهجاني لتورّط بعض أعضائها في الدعوة إلى تعويض اللغة العربية باللهجة التونسية...

من أهمّ رموز هذه الحركة الشاعر الراحل الطاهر الهمامي، الذي فاجأنا برحيله منذ سنة تقريبا، وهو في أوج عطائه الأدبي، وفي تمام نضجه الفكري والإبداعي، وكان رحمه الله، قد تاب عن هلوساته القديمة، وطفق يكتب شعرا جميلا، ويزرع في حديقة الشعر العربي بتونس قصائد عمودية وحرّة ونثرية، تعكس قطيعته المعلنة والواضحة مع أفكار الحركة، التي كان يتزعّمها وينظّر لها ...، ولكنّي اليوم، لست بصدد التأريخ للحركة، أو تهديم ما تهدّم أصلا، إذ لم يكن صالحا للناس فجرفه سيل النسيان..، كلّ ما في الأمر أنّي ذكرت حادثة وقعت لي مع الشاعر الراحل ، فأردت إخراجها من غياهب ذاكرتي إلى الأدباء العرب والقرّاء أينما كانوا..، وذلك تحيّة إلى روح الطاهر الهمامي الذي تميّز طوال حياته برحابة الصدر، رغم عناده الشديد ....

في بداية الثمانينات من القرن الماضي، وأثناء ملتقى شعريّ، منعقد باتحاد الكتاب التونسيين، قرأ الطاهر الهمامي بعض قصائده الموغلة في التقريرية والناسخة للواقع كما هو، دون تحريف شعريّ ضروريّ لكلّ عمل إبداعي، وأقصد بالتحريف الانتصار للجانب الفنّي والجماليّ للقصيدة، قبل عرضها للمتلقّي، وذلك لإضفاء طابع أدبيّ ومناخ شعريّ على النصّ، يحرضّ القارئ على استيعاب الأفكار المطروحة داخلها، ويساعده على تقبّلها وهضمها، دون الإحساس بالغثيان مثلا....

كانت القاعة غاصة بالشعراء والغاوين، وكنت قد اقترفت في غياهب الليلة الفارطة قصيدتين على لسانه ووفق منحاه الواقعي المباشر، حاولت خلالهما تقمّص دوره والتلبّس به أثناء كتابته لنصوصه، مع تمرير استهجاني لطريقته في الكتابة، ورفضي لمشروعه الشعريّ، وذلك بتمييع موضوعيْ القصيدتين، وإضفاء طابع هزليّ عليهما، فلاحت القصيدة الأولى على بياض الورقة، على هذا النحو:

" عندما تتدقدق* ماكينة القلب

يسقط خضّارنا في قمّة* النفايات

ويعضّ الكلب زندي

لقد ضاع منّي رباط حذائي

وأصبح ذقني كظلفة هندي*

وحين رجعت إلى البيت

جاءت مباركة لتفصّص الجلبانة عندي"

أمّا القصيدة الثانية، فنبتت كما يلي:

" البنطوف* البنطوف البنطوفْ

المالوف المالوف المالوفْ

صار دمي جفّالا* مخلوطا بالصوفْ

العالم حلّوفْ*

والشعب رغيف في صحفة لبلابي*

والشاعر يجترّ الواقع مثل خروفْ "

في اليوم التالي، طلبت من رئيس الجلسة أن يُمكّنني من قراءة قصيدتين مهداتين إلى الطاهر الهمامي، وكان لي ما أردت، وقفت رغم شعوري بفداحة ما سأقوم به، ثبّتُّ عينيّ في السقف، ثمّ أطلقت القصيدتين في صمت القاعة، نفذّت مهمّتي على أحسن وجه، وانتظرت ردّ الفعل، أوّل ما أثار استغرابي وفجّر قلقي، ابتسامة المرحوم الطاهر الهمامي وسط عاصفة التصفيق والضحك، وشعرت بندم أليم، على مشاكسته بتلك الطريقة التهكّميّة، لذا وإثر انتهاء الجلسة مباشرة، قدّمت له اعتذاراتي، وها إنّي اليوم أجدّد اعتذاري لروحه ولأدبه، وأضع وردة بيضاء على ربوة كتبه وأعماله، فرغم أنّني لا أستسيغ شعره وأختلف معه كلّيا حول شكل وطريقة الكتابة، فقد كنت وما أزال أجلّ فيه المثقف المتواضع، والشاعر الحائر،

الباحث عن آفاق جديدة للقصيدة، والرجل العنيد ذا الـصدر الرحـب المفتـوح للآخـرين.... رحمـه الـلـه

*عندما تتهشّم آلة القلب

* بالوعة

*التين الشوكي

* صنف من الأحذية المنزلية الخفيفة

* مادّة تنظيف

* العالم خنزير

* أكلة شعبية تونسية

عليكَ أنْ

صديقي الكاتب العربي المقيم في الهامش، والحالم منذ كنت بافتكاك نصّ عظيم من بـراثن العصر الجامح باتجاه اللامعنى، لا بأس عليك، حالك ليست سيّئة إلى هذا الحدّ الذي أستشفّه مـن هذيانك المحموم، من حين إلى آخر في المواقع الافتراضية، ابتسم وكن واثقا من قدرتك على الإضـافة للمدوّنة الإبداعية العالمية ومن انتـصارك في نهايـة الرحلـة، عليـك فقـط أن تقـوم بـبعض الأفعـال الضرورية لتساهم في استمرار الحياة على ظهر هذا الكوكب الذي يدور ببلاهة وسـذاجة غـريبتين، يدور كي يدور، وهذا هو الغباء بعينه، ولكن دعنا منه، وسجّل على بياض أوراقك ما عليك فعله....

أوّلاعليك أن تنهض من قبرك باكرا، وأن تنجح في التملّص من كوابيـسك قبـل تتواصـل مـع أفراد مجتمعك المدني، فمن غير اللائق أن تخرج للناس بسحنة تمساح، أمّا إذا كنت زوجا وأبـا مثلي (أرجو من كلّ قلبي أن تكون متورّطا في المؤسـسة الزوجيـة الرهيبـة) فلـيس جمـيلا أن تفزع فراخك ودجاجتك في افتتـاح يـوم جديـد، وهـم متحلّقـون بـك وعيـونهم عـلى جيوبـك العلوية والسفلية ومقبلون على تغذيـة أجـسامهم بالقليـل القليـل الـذي اختلـسته البارحـة من موائد الغيلان، هذا عيب فادح ولا بـدّ أن تـدّعي كـلّ صـباح أنّـك حـيّ تمامـا وفي كامـل قواك العقلية والروحية، ...يا صديقي بعـد طمأنـة أسرتـك الـصغيرة عـلى مـستقبلها، إذ أنّـك ستثبت لأهلك الطيّبين من هنا فصاعدا ، وأنا واثـق مـن ذلـك، أنّـك لم تجـنّ بعـد، ولم تفقـد كذلك شهية الحياة ، وبالتالي ستبيض ذهبا آخر الشهر، وإن كنت ديكا، ...مع المعـذرة، ولكنـي

أحرص على أن أمحضك النصح حبّا فيك، لذا أجد الجرأة على مصارحتك ...، عليك إذن بعد إرضاء الجبهة الداخلية أن تفتح الباب وتنطلق في توزيع التحيات على جيرانك، بدءا بصاحب الدكان المجاور لبيتك، والذي يشتغل في الأصل رقيبا على الحياة، ومنطقته المسؤول عنها هي لسوء حظّك، الحيّ الذي تموت فيه، عفوا، أقصد الحيّ الذي تمارس فيه شتّى أفعال الحياة الجميلة، أعرف أنّ الطريق الفاصلة بين بيتك ومقرّ عملك طويلة ومزدحمة بأفراد مجتمعك المدنيّ، أمّا أنت فعليك أن تفقه نهائيّا أنّ الكاتب هو أوّل المدافعين عن السلوك الحضاري كالابتسام مثلا لسائق أوشك على دهسك، وطلب العفو والمغفرة لمديرك الذي وُجد في الأرض ليصيح، وكأنّه لم يصمت منذ زعيقه الأوّل وهو يُطرد من رحم أمّه المغفور لها أيضا ..، يا صديقي على المبدع أن ينحني غالبا في سبيل تحقيق هدفه الأسمى :

كتابة مدوّنة أدبيّة متميّزة، تتوارثها الأجيال القادمة وتستضيء بها، لذا لا تعبأ بسخرية زملائك في العمل، كلّما خرجت من مكتب المدير أزرق وغير محترم، تلك ضريبة الإبداع، وأنا أتفهّم وضعيّتك الحرجة، فمن ناحية عليك أن تهدّد الأبناء والزوجة حتّى يهجع البيت، ويكون الليل قد انتصف في أحسن الأحوال، ثمّ عليك أن تحدّث نفسك بعض الوقت وتقنعها بضرورة مواصلة البذل والعطاء من أجل مستقبل الثقافة العربية، يلي ذلك تحديق لمدّة ساعة تقريبا في بياض الأوراق بحثا عن النّص الحلم، ويكون الليل آنذاك قد شاب قليلا، وأقنعك بالاستسلام المشرّف لسلطان النوم، فيعلو شخيرك مؤلّفا سنفونية عظيمة، ومن جرّاء التعب والغضب والإحباط تستيقظ متأخّرا، بعد أن ملك الموتى العالم، ومديرك من ضمنهم، لهذا يمقتك ذاك الرجل، فأنت مبدع وهو مجرّد مدير، فعليك أن تصبر على إذلاله لك، وأن

تجتهد أكثر طوال ساعات العمل نكاية فيه، وإفحاما لكلّ من يراهنون على استقالتك مـن الكتابـة، بعد أن عاينوا طوال سنين طويلة ذهولك وشرودك وتدهّور حالك، يا صديقي عليك أن تكدّ طـوال اليوم وتنتج ما ينفع البلاد والعباد، دون أن تتنازل عن واجب الكتابة والإبداع، وهذا هـو التحـدّي الذي تطرحه الحياة على المبدعين الكبار أمثالك، وأنت أهل لهذا التحدّي، وستفرض نصّك واسـمك وحتّى جسمك إن شئت في الساحة الأدبية العربية ..والعالمية، لم لا؟، أشدّ على يدك و..، نـسيت أن أذكّرك بأمر أخير : عليك أن تخصّص بعض الوقت للتفكير في كبش العيد .. بعععععععععْ .

النخبويّة ...

وجنازة الثقافة العربية

الأدب نخبويّ، لست معارضا لهذا الرأي ولكن، وكم من مشاكل ورّطتني فيها " لكن " هذه، ومع ذلك مازلت مصرّا على رفعها من حين إلى آخر لتوضيح أمور كثيرة، تتلبّس بالغموض وتتحصّن بالسكوت بقدرة قادر، في زمن عربيّ يدين بدين الصمت والموافقة الآلية على كلّ شيء، لذا أعشق هذا الاستدراك الذي يتيح لي تجليّة غيومنا الثقافية التي لا تحصى، أوافق القائلين بنخبويّة الأدب ولكن ما الذي نقصده بالنخبويّة؟، هل القصد الوصول بلقاءاتنا الأدبية إلى الحالة المزرية التي نعيشها منذ عقدين من الزمن، أمسيات شعرية يحضرها الشعراء الضيوف ومدير الفضاء الثقافي الذي يحتضن الأمسية، وغالبا ما يكون السيد المدير مدمنا على التثاؤب والأمن الشعريّ، كما يحضر اللقاء حارس الفضاء وعاملة التنظيف التي يقع تكليفها بمهمّة أخرى، تتمثّل في توزيع كؤوس الشاي والقهوة، وإضافة إلى هذه النخبة من جمهور الشعر والأدب عموما، قد يخطأ بعض المارّة ويجدون أنفسهم وجها لوجه مع الشعراء اليتامى فيجلسون قليلا استردادا لأنفاسهم ولمعاينة وضع سرياليّ (شعراء يشدون لبعضهم البعض وفي نبرات أصواتهم حرج واضح وجليّ ومفضوح، كمن يلقى عليه القبض متلبّسا بجريمة)، هذه حال اللقاءات الأدبية من ندوات وملتقيات فكرية ومهرجانات شعرية وحفلات توقيع لكتب لا يسمع بها أحد ولا يدنو منها أحد حتّى وإن اصطدم بها في الأرصفة المخصّصة لرسكلة الكتب الحديثة والقديمة، هذه حالنا اليوم، والغريب أنّ أصوات مناصري " النخبوية" ما

تزال عالية وحادّة، ما يزال بيننا من يسيرون في جنازة الثقافة العربية وهم يهلّلون من البهجة والنشوة ربّما ....،

هل انحسرت النخبة في أقطارنا العربية حتّى أصبح بالإمكان عدّها على أصابع اليد الواحدة في مختلف تظاهرتنا الفكرية والأدبية ؟، وهل هذا ما نقصده حين نتشدّق في المنابر المقفرة والمجالس الباردة والمهرجانات الجرداء بسموّ الفكر والفنّ على العامة و" الغوغاء"، إن كانت هذه نخبوية الإخوة المبدعين الأفذاذ، المنظّرين الكبار لتفوّقهم الفكري والعلمي والحضاري والإنساني ربّما على قطعان المواطنين الهائمين من الملح إلى الجرح، إن كان هذا ما يراد بالثقافة في أوطاننا فعفوا، لن أشارك في هذه الجريمة ولن أكون شاهد زور ...

وصلت بنا المهزلة إلى الكتابة لأصدقائنا الكتّاب الذين لا يقرؤون أيضا، فهم مشغولون بالكتابة لنا نحن رفاقهم المنتمين إلى النخبة، علما أنّنا لا نقرأ لهم أيضا فنحن أكثر انشغالا منهم بالكتابة وهكذا دواليك، وصلت بنا المهزلة إلى الإحساس بالسعادة وإلى الاقتناع بالغالبية الساحقة أنّ الندوة الكبرى التي حضرها تسعة مثقفين في قاعة النزل الفلاني، ودامت ثلاثة أيّام وتجنّد لها العشرات من موظفي النزل وعمّاله وخدم الغرف بإشراف مسؤولين كبار من سلطة الإشراف وتمّت تغطيتها إعلاميّا من قبل قناة تلفزية وإذاعتان إحداهما وطنية والثانية محليّة ووووو .... حقّقت نجاحا باهرا وحرّكت السواكن ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، أخرجوا إلى الناس أيّها الناس، وانفتحوا على مجتمعاتكم واستقطبوا الملايين من المتعلّمين والمغرمين بالأدب والظامئين إلى فكر حرّ يرفعهم من هوّة اليأس ومن هامش التهميش، ثمّ واستنادا إلى معادلات الأرقام، هل تنحسر النخبة إلى هذا الحدّ المحبط

للعزائم، (زمرة من المنظّرين للبؤس الثقافي في أمّة تضجّ بملايين التلاميذ والطلبة والأساتذة والدكاترة وأصحاب المواهب الأدبية والفنيّة...إلخ)، النخبويّة لا تعني تقليص جماهير القرّاء والمتعلّمين والعصاميين إلى حدّ إلغائهم تماما، مع البكاء على انقراضهم، وهنا لابدّ من الإشارة إلى اطّلاعي على نسب الأميّة والجهل والكسل أيضا في مجتمعنا العربيّ، ولكن هذا الأمر المحزن والحقيقة الفاجعة، لا يدحضان رأيي ووجهة نظري الداعية إلى توسيع دائرة النخبوية وإمكانية النجاح في هذا المسعى، فبقدر ما لدينا من أمّيين وكسالى، بقدر ما تعجّ أقطارنا، مدننا وأريافنا بالمثقفين والمتنوّرين، لدينا من

" الطين والمادّة الخام " ما يكفي لخلق طبقة واسعة من القرّاء والمتابعين للشأن الفكري والثقافي، ولاستقطاب آلاف المواهب والطاقات الإبداعية ، فقط، نحتاج إلى وسائل للقيام بذلك وإلى مؤسسات ثقافية وإعلامية فاعلة داخل المجتمع، ذات نفوذ وعلى رأسها مؤمنون مدجّجون بالحبّ والعناد، ولكن (مرّة أخرى) وقبل كلّ ما ذكرت، نحتاج إلى قرار سياسيّ من لدن من بأيديهم الأمر .... فكرة القدم التي أتابعها أحيانا وأعشق دائما النادي الإفريقي، ليست أهمّ من الثقافة لتفتح لها كلّ الأبواب ويقع تبجيلها على كلّ شيء حيّ وميّت ......

(يا ويلي من "لكن").

الأدب " المدرسيّ "

تعاونت مع المطر الخريفيّ على فرض الهدوء في أزقّة المدينة العتيقة وداخل بيتي الواقع في سرّتها تماما، الهدوء شامل ورائع ، والليل الماطر يخدّر كلّ شيء : الجيران والقطط والصعاليك الذين كانت لهم صولات وجولات في ليالي الصيف، ذاك الذي رحل غير مأسوف عليه، وها قد هجع أبنائي الشياطين الرائعون ، ورمت زوجتي كلّ المناديل، واستسلمت للنوم، لتشحن طاقة جديدة لحروب الغد في بيتنا الآمن السعيد، اللهمّ صلّ على النبيّ، لا أنسب من هذه الهدنة مع العالم لقراءة كتاب أو استدراج قصيدة، ولكنّي أميل الليلة إلى القراءة، وها إنّي أردّد في سرّي عجز بيت المتنبي " وخير أنيس في الأنام كتاب"، وأتسلّل كالسارق إلى مكتبتي كي لا أوقظ العالم من جديد وتهجم عليّ الضجّة والمطالب والصداع، يطالعني على أحد الرفوف عنوان رواية جديدة أهدانيها أحد الروائيين المشهود لهم بالإبداع والتميّز، تمتدّ يدي وتقطف هذه الهديّة القيّمة، ونفرّ أنا ويدي القابضة على الكتاب كمن فاز بصيد ثمين، إلى ركني حذو النافذة المغلقة، تذكّرني وشوشة المطر أنّني كائن محظوظ، فلي ربّ أمر الخلق بالنوم وفرّق شمل الرعاع، ولي بيت ساكن وملائم لأديب مثلي، ديدنه القراءة والكتابة، ولي الليل كلّه قبل أن يتجدّد الكابوس.

كلّ شيء جاهز للسهر، فنجان القهوة، علبتا السجائر، الأوراق البيضاء، القلم والكمبيوتر أيضا، وما عليّ سوى أن أستلقي وأحني عنق الفانوس قليلا، وأتوغّل في أدغال الرواية وحقولها الملغّمة ...، ألتهم ثلاث صفحات في تذوّق أوّل، وأطرد طلائع خيبة لا داعي لها، صحيح أنّ فاتحة الرواية شبيهة بدرس عن مكارم الأخلاق ومحاسن

العمل الطيّب ، فالشخصية الأولى التي رسمها الكاتب بإطناب حتّى كاد أن ينحتها على رهافة الأوراق، كهل جرّب كلّ شيء، واقتنع أخيرا بضرورة الندم على ما اقترفه في حقّ نفسه ومجتمعه، واختلى بذاته ليطهّرها من الآثام، وذلك بجرد كلّ ما في تراثنا من وقائع انتصر فيها الخير على الشرّ، صحيح أنّ الكاتب أفرط في الثرثرة ولكن لا بأس، سأتجاوز تجرّؤه على تلقيني وأنا مشرف على هوّة الخمسين، قواعد الإقامة في هذا الكوكب الشبيه ببرتقالة متعفّنة ...، لا بأس، لعلّه تعمّد إزعاج القارئ في الصفحات الأولى ليفاجئه بجمله المكثّفة وأسلوبه الشيّق وحِيَلِه السردية المُحكمة، فتكون متعته الأدبية مضاعفة إثر " الكلام الفارغ " الذي تجرّعه وساهم في تكدير حياته العربية .

ها إنّي ألعن الشيطان الرجيم، وأكلّف عينيّ بالقراءة من جديد، صفحة أخرى وصبرا آل ياسر، ثمّ أخرى ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، أتخطّى بعض الصفحات دفاعا عن أمل بسيط ما يزال عالقا بخلايا دماغي، تستجيب عيناي لأمري من جديد، ومن جديد أجد نفسي في حضرة مؤدّب متنكّر في زيّ روائيّ، كان أولى به أن يكتب مقالة أو خطبة، ويدافع فيها كما يحلو له عن صحّة أفكاره ومعتقداته، أمّا أن يحشر هذا المتن المباشر الفجّ في جنس الرواية، فتلك مصيبة أخرى تنضاف إلى كوارثنا الكثيرة ...، ها إنّي جالس أما الكمبيوتر بعيدا عن " الهديّة القيّمة " لأكتب هذه الشكوى، الحرام الحرام أن يتحوّل أدبنا إلى دروس مدرسية وخطب توجيهيّة وواجهة ناتئة لعرض " الحقيقة "، الأدب شحذ للعقل ونثر للأسئلة الحارقة، فرجاء لا يدخلنّ علينا كلّ ملاّك الحقيقة، وأصحاب الأجوبة الجاهزة، وذوي النصوص الآمنة المطمئنة، دعونا نذهب بالنصّ إلى أقصى التخوم ونلقي به في الحيرة والدهشة والسؤال، ويكفي

القارئ العربي ما يعانيه من برمجة يوميّة لسلوكه وطريقة سيره وعلى أيّ جنب يغفو وأيّ أحلام يمكنه أن يرتادها، تعبنا يا قوم من " الرواية الحكاية " والسرد الممنهج بأعصاب باردة وأرواح جامدة، تعبنا من ملاقاة السيد النصّ المحترم الخارج من الإدارة والذاهب فورا إلى بيت الطاعة، نريد إبداعا يخلخل الثوابت المنخورة أصلا، يلتفت إلى تراثنا باحترام نعم، ولكن بعين الناقد الجريء، ويتقدّم باتجاه الغد بشجاعة المغامرين واندفاعة المستكشفين، وليكن أنّ المزالق كثيرة، وإمكانية السقوط واردة، ولكنّ الحياة تدعونا إلى التوغّل في كلّ مجالاتها منذ كانت الحياة، ولا إضافة ولا تطوّر دون الاستسلام لدهشة الكائن ودون تتبّع آثار حيرته، هكذا اندلعت أجمل النصوص على وجه الأرض، ولا سبيل للمبدع غير التيه، أمّا الواضحة والمسطّرة دروبهم فلا أمل في خروجهم عن الدرس والتدريس ، ... أشكوهم إلى التاريخ، سيثأر لي منهم، إن وجد لهم بعض الوقت طبعا.

في الماء ولا أبتلّ

في النار ولا أحترق

ما أغرب حال بعض الكتّاب والمثقفين العرب، ينظّرون طيلة عقود من الزمن العربي الثقيل، لضرورة وحتمية ترسيخ الديمقراطية في كلّ أرجاء الوطن الكبير، بدءا بأقطارهم ومنتدياتهم وحلقاتهم في الليل والنهار، ويحبّرون آلاف الورقات في تمجيد الحوار وقيم التسامح والانفتاح على الآخر، وغير ذلك من " الكليشيات" الرنانة والتي لا تخلو من عذوبة وجمال، يكرّسون نسبا متفاوتة من حيواتهم الثمينة في الإشارة، باستحياء طبعا، إلى استبداد الحاكم وجوره وإلى تسلّط الزمرة المحيطة به وغلقهم لكلّ الأبواب والمنافذ والنوافذ والكوى في وجوه الخيّرين الوطنيين الشرفاء...، يومئون إلى هذه التجاوزات الخطيرة في هوامش مقالاتهم وبين سطور إبداعاتهم الأدبية، وفي زوايا المقاهي وغيرها من الفضاءات الخاصة بالمهمّشين المقهورين، ونكاد حين ننصت إلى وشوشة أحدهم أن نبكي دما على عدم انتفاع الأمة بخدمات هؤلاء المبشّرين الأبرار، ولكن يحدث من منعرج سياسي إلى آخر ومن أزمة خانقة إلى ورطة قاتلة أن يصبح أحد هؤلاء الطيّبين مسؤولا في صلب النظام الذي عبّر طيلة سنوات " حزينة " عن امتعاضه ونفوره واشمئزازه منه، يحدث هذا بقدرة قادر وبين عشية وضحاها، فنقول لعلّ في الأمر سرّا ، والأكيد أنّ فيه الخير كلّه، فنحن نعرف مواقف هذا المسؤول الجديد وأخلاقه ورحابة فكره وصدره وبطنه ربّما، ونعرف نبل ذاته العزيزة ونقاوة طينته العطرة، وما علينا سوى انتظار الإنجازات

الرهيبة التي سيقوم بها صديقنا الديمقراطي والمثقف الفذّ والرفيق الغيور على مصلحة البلاد والعباد..

يطول الانتظار...، وأوّل ما نلاحظه دون عناء، أنّ تحوّلات بدأت تطرأ على صديقنا، مثل خلوّ مقالاته وجملة ما يحبّره، من النقد البنّاء وإن كان خافتا، وانقراضه التدريجي من أماكن تواصلنا وتلاقينا على رأي ابن زيدون

" أضحى التنائي بديلا عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا "

بعد هذا التحوّل المذهل، يطرأ تغيير آخر، لا يقلّ إعجازا ويتمثّل في تهرّبه " التقني والعلمي" إن جاز القول، فمن المرجّح أنّه سيلجأ إلى استعمال خمس شفرات لهاتفه الجوّال ..على الأقلّ، يغيّرها باستمرار وبمواظبة وجديّة، فالأمر جلل، أصدقاؤه القدامى يجذبونه إلى الدرك الأسفل الذي كان يتخبّط فيه، ويذكّرون العالم بتاريخه المشرّف، وبطبيعة الحال يصبح لصديقنا باب مكتب مغلق وحاجب وسكريتيرة كارثيّة الجمال، موسوعيّة الدلال والغنج، ولها مواصفات أخرى شيطانية والعياذ باللـه، لا نظفر منها إذا هاتفناه في مكتبه، أو تجرّأنا على طرق بابه إلاّ بابتسامة مسجّلة في (جمعية حماية حقوق الرقيقات المنافقات)

فهي، والحقّ يقال أحيانا، ابتسامتها هي وليس كمثلها ابتسامة في الأرض وضواحيها، ابتسامة حين نحلّلها في جلسات خيباتنا، ندرك ونفقه ونعي أنّ حال هذه الأمّة ليس بخير مطلقا، وأنّ الخلل يكمن في فكر مديرها " صديقنا طبعا "، فكر المثقف العربيّ، هذا المراوغ الانتهازيّ، صاحب الفكر الذي يؤمن بالمقولة المخزية " في الماء ولا أبتلّ، في النار ولا أحترق"

ثمّ ما معنى أن نردّ تخلّفنا وهواننا على من هبّ ودبّ من القبائل والشعوب والأمـم، إلى الحاكم العربي وحاشيته، في حين أنّنا جميعا مشاركون بشكل من الأشكال في تواصل مهازل كثيرة في عدد "لا بأس به" من الأقطار العربية، وفي ترسيخ نمط حيـاة ثقافيـة وسياسـية متخلّفـة، وطريقـة عيش مهينة في أكثر من جهة داخل هذا السجن الكبير المسمّى بـالوطن العـربيّ، نحـن مـساهمون وبنسب متفاوتة في استبداد المـستبدّ وتخـاذل المتخـاذل مـن سـلاطيننا الـرائعين وأصـحاب الـسموّ المنزّهين ...، خلاصة القول، هل نريد حكّاما ينصتون إلى كلماتنا الـشجاعة والمـسؤولة والنابعـة مـن وطنيتنا وغيرتنا على الشعب العربي المحزون المحبط، أم نحلم بأنبياء توحي إليهم السماء بالإصـلاح والبناء وفتح المجال لكلّ الكفاءات للنهوض بحالنا " السريالية "

أعتقـد صراحـة أنّ الحـاكم في كـلّ مكـان وزمـان، هـو نتـاج لمـن حولـه مـن المثقفـين والمستشارين، بل وأكثر من ذلك، هو ابن الشعب الـذي يرأسـه، لم يـأت بـشيء مـن عنـده، هكـذا بالفطرة، فكيفما كنّا إذن يولّى علينا، الخلل في فكرنا الأحادي وعقليتنا المشحونة بإلغـاء الآخـر رأيـا وصوتا وحضورا إن لزم الأمر، وما يحدث في سـاحاتنا الثقافيـة خـير دليـل عـلى مـا أنزفـه الآن مـن اعترافات حادّة وجارحة، و.....

"خائن من لم يجنّ".

المعرفة والببغاوات

تسقط من أعالي أحزانك والتزاماتك على مقعد ما ، في جهة ما من الكوكب المزدحم، كي تلتقط ما تبقّى من أنفاسك وتستعدّ لجولة أخرى من صراعك اليوميّ مع الحياة، ستمرّ استراحة المحارب بسلام وعلى ما يرام إن كنت لست منكود الحظّ مثلي، أمّا إذا كنت من الذين يتفنّن القدر في تدمير أعصابهم، وبالتالي من أعضاء الحزب الذي أنتمي إليه كرها، حزب" لاحظّ ولا راحة ولا أمل في ذلك " فسيهبط عليك هكذا وبمحض الصدفة أحد الأصدقاء القدامى المتجدّدين ، فلان بن فلتان المثقف العضوي الذي يهدّد الأمّة منذ كان، بالكتابة والإبداع والإضافة، فيحيّيك بأدب جمّ ويجلس حذوك، لكي لا أقول في حجرك، وتبدأ حصّة التعذيب

يجرّك إلى الحديث بشتّى الطرق والأساليب لغاية في نفسه، فتحاول غلق جميع الأبواب والمنافذ في وجهه بخبر ثقيل، تهمس له : أمّي مريضة وحالتها تسوء يوما بعد يوم، ويجب أن أعود إليها الآن ...، ولن تنجح في مسعاك للهروب أبدا، يربّت على كتفك أوّلا، ثمّ يمسكك من ذراعك ليطمئنّ قلبه ويرغمك على التسمّر في مكانك والاستماع، ويطلق الصاروخ الأوّل : "الأمّ كائن عظيم ومكسيم غوركي كان على وعي تامّ بعظمتها، والدليل روايته الخالدة (الأمّ)، صراحة أجزم أنّ كلّ من لم يقرأ هذه الرواية جاهل بامتياز.."، تبدأ أعصابك في التفتّت، ومع ذلك تبتسم له وتحاول تحويل وجهة الحديث إلى أيّ موضوع آخر، إلى تنامي جرائم القتل والاغتصاب وخطورة العيش في عالم اليوم، فيقطع حديثك بذكر عنوان آخر: " هل قرأت (الجريمة والعقاب) لدوستفسكي، لا أظنّ أنّك ستسمح بوجود ثغرة كبيرة في ثقافتك ..أليس

كذلك؟"، وينهمر مرّة أخرى على رأسك المتصدّع بوابل من عناوين الكتب والمجلّدات والمعـاجم إن لزم الأمر، ولن يتركك إلاّ إذا تأكّد من قتل آلاف الخلايا في دماغك المذهول، تتململ ثـمّ تفلـت مـن براثنه وتهرب إلى أقرب ملاذ آمن وأنت مكتظّ بالأسـئلة : مـا الثقافـة ومـن المثقـف؟ ومـا نفـع أن نصبح مخازن لأطنان "المعرفة" دون أن نمتلك أدوات الهـضم، ثـمّ ألـيس مـن العجـب العجـاب أن يستشهد أحد هؤلاء الببغاوات بالمسيرة النضالية لتشي غيفـارا عـلى سـبيل المثـال، وهـو الانتهازيـة المعاصرة مجسّدة على أرض الواقع، أو يتشدّق بصدر بيت المتنبي (عـلى قلـق كـأنّ الـريح تحتـي) وهو جثّة خاملة، حياته عبارة عن خطـأ مطبعـيّ متكـرّر " كـسل وبطالـة وتـسوّل، كـسل وبطالـة وتسوّل .." إلى أن تنفجر المطبعة من الحنق، وما معنى أن يتطفّل أحدهم على جلـسة مـا، ويعلـم ضحاياه المندهشين من صفاقته، أنّه مولع بالعطور الفاخرة، ويمرّر إثر ذلك النباح الأوّل، معلومته " المعرفية " إلى جميع الجالسين وإلى العابرين والعالم، ومفاد الخبر "الثقافي" أنّه قرأ روايـة "العطـر " لباتريك سوسكند، هذا كلام فارغ ولا علاقة له بماهية الثقافة ودورها في حياة إنسان اليـوم المهـدّد بالتشيّء، ثمّ ما هذا المسلسل التافه والمملّ الذي يشارك فيه زمرة من المتطفّلـين عـلى الثقافـة، بـل على الحياة، إدّعاءات خاوية وصـفاقة لا وصـف لهـا، الثقافـة أن نهـضم مـا نقـرأ ولـيس أن نمـسي واجهات برّاقة لعناوين كتب ولجملة من الخطب الجوفاء المراد منها استعراض عضلات "معرفيّة "، فما لم نع أثناء كـدّنا المعـرفي والإبـداعي أنّ التواضـع أسـاس المعرفـة وأنّ الـنصّ هـو الفيـصل بـين الجميع، نكون كمن يدّعي حيازة البحر وهو يتخبّط في بركة آسنة .

في الكتابة عن الكتابة

من أهمّ المحاور والمواضيع التي تشغلني منذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي، ككائن مصهور في فرن الكلمات والمعاني، موضوع الكتابة عن الكتابة، وقد كتبت عديد القصائد منصاعا لأوامر الهاجس الأكبر المسيّطر عليّ، ألا وهو أرق الكتابة وصداعها، جدواها ومخاطرها، أسئلتها وحرائقها ...إلخ، وبصرف النظر عن القصائد الخاصة بهذا الموضوع المزعج بالنسبة لي، تكاد لا تخلو قصيدة واحدة من متني الشعري، من الإشارة أو الإلتفات إليه، وتوريطا منّي لأهل الكتابة والصداع، وتذكيرا لمن نسي هذا الألم في استراحة محارب، أو إغفاءة عليل، أطرح بعض الجمرات الشعرية على هذه الصفحة، حتّى يقاسمني إخوتي الأعداء هذا الوجع المزمن، وذاك أضعف الإيمان :

هدنة

أين ضيّعت وجهك؟

في غابة الخبز أم في قفار الكتابةْ؟

وإلى أين تمضي بك الأبجديّة والحزن

يا طائرا ظنّت الريح أنّه تاب؟

وما تبت ... لكنّها هدنة، كان لابدّ منها:

لتبكي قليلا على ما فقدت

لتنزف حبر الكتابةْ

قنوط

كأنْ ما اختليت بها قبل ليلك هذا

وما فاضت العين والكأس والأبجدية

من فرط ما بكما

كأنْ ما توهّجت بين يديها

وأوغلت فيها

كما ينفذ الطير في الشجرةْ

كأنْ ما تكسّرت في حضنها

وتحدّرت في نحرها دمعة .. دمعة

كأن ما اختليت بها قبل ليلك هذا

وقلت لها ما يقول غريب لأنثاه في ركن غابةْ

كأنْ لم تعد مؤمنا بالكتابةْ

مقطع من قصيدة " هاتها "

هاتها

للقصيدة فرسانها الأغبياء

وبي ظمأ للحياة ولذّاتها

هاتها

لم أعد أحدا بالقصيدة

ولولتُ من شجن بالغ في طريقي إلى القبر

فاعتقد الناس ما اعتقدوا

أَوَ شعر بكائي على طائر كنتُه ؟

أوَ شعر نواحي على أمّة

غصّ قلبي بأيتامها

وقطعت حياتي وراء جنازاتها؟

هاتها

ولتحلّ على كتبي لعنتي

وعلى كلّ من حوّلوا وجهتي

من سكينة روحي إلى ضجّة الكتبِ

أين أهرب من هذه الجلبةْ؟

كيف أفلت من زحمة الكلمات وأصواتها؟

..... ؟ .....

لم أكتب منذ

ولن أكتب حتّى

ما جدوى إهداري لدمي

في رسم الموتى للموتى؟

ما جدوى تبذيري لحياتي

في بيت اللغة المهجورْ

وبيوت الدهشة شتّى؟

شعراء أم موظّفون لدى " الثورة " ؟

في جلّ أصقاع الوطن العربي وبعد كلّ أمسية شعريّة حماسيّة طبعا، ينهمر التصفيق مرفوقا بموجة عارمة من الهيجان، تتخلّلها تهاني النصر والإبداع، ثمّ تنغلق الأمسية على سكرة جماعية وينسحب الجمهور مترنّحا منتشيا، يوغل كلّ فرد منه في غابة التجار والسماسرة والأحزاب المتناحرة والميليشيات المدجّجة بالسلاح وحبّ الوطن، ثمّ يبرد دم الجمهور تدريجيّا وينطفئ تماما حين يختلي كلّ واحد بنفسه: "بهزائمه اليومية وديونه الأبدية ورعبه القديم المتجدّد من السلطة القديمة والحديثة، إضافة إلى هوسه بكرة القدم ومقته الشديد للكتب وذعره من الماضي والحاضر والآتي والربيع العربي الذي تحوّل إلى فصل خامس خارج نواميس الطبيعة والحياة، أمّا الشعراء الفطاحل محرّرو الأرض ومحقّقو النصر المبين، فيتسلّلون : الجهبذ تلو الفذّ تلو النحرير إلى مكتب مدير الفضاء الثقافي الذي احتضن الأمسية، ويدسّون في جيوبهم نزرا من وسخ الدنيا المعمّد بدماء الشهداء، ثمّ يهرولون باتجاه بيوت مختلفة العناوين، منهم من يأوي إلى بيت الطاعة، ومنهم من يلوذ ببيت العنب، ومنهم من يطير إلى بيت المال ويكدّس غنيمته الجديدة في رصيده البنكي المحترم، وقد يغضب من تكاسل موظّف البنك، فهو كشاعر فحل له مشاريع شعرية تحريرية، تضجّ في رأسه، ووقته من ذهب، كلّ قصيدة جديدة هي بمثابة الغزوة الجديدة وكلّ غزوة جديدة لها غنائمها طبعا.

هذه حال بعض شعرائنا في الـوطن العـربي عمومـا، ولـست أتحـدّث عـن المتطفّلـين عـلى الشعر بل أقصد شعراء مبدعين، لهم مواهب كبـيرة وقـدرة متميّـزة عـلى تطويـع اللغـة واقتنـاص الصور الشعرية، ولكن كلّ هذا لا يكفي لكتابة قصيدة حديثة، تتنفّس الفوضى المتفشّية في أوطاننا وتمشي في الأسواق وتنزف مع النازفين دون أن تذبل أو تهرع إلى الصياح الـسهل، قـصيدة تقاسـمنا لحظتنا الراهنة بكلّ ما فيها من تفاصـيل تـؤدّي جميعهـا إلى الجنـون أو العنـاد العظـيم، قـصيدة مغامرة حرّة، مثقّفـة لا تخـشى التوغـل في غابـة العـصر الحـديث ولا تكـفّ عـن الحفـر والبحـث والتجريب...، اختلافي مع هذه الشريحة مـن " المبـدعين " العـرب ، كثـيرة ومتـشعّبة مثـل أحزاننـا العربية، ومن ضمنها أنّني ـ أرفض نسخ تجارب شعرية شاهقة مثل تجارب المتنبّـي أو أمـل دنقـل أو محمود درويش ـ أرفض بشدّة أن يكون الشاعر موظّفا لدى الثورة أو لأي قضيّة أخـرى وداعيـة لعدالتها وقدسيّتها 25 ساعة على 24 ساعة، فالشاعر أكبر من كلّ قضيّة ومـن كـلّ حـزب وجماعـة وقبيلة ...إلخ، من حقّه أن يدافع عن قضيّة ما، بل من واجبه ذلك، لكن دون أن يقدّم نفـسه مـن خلال شعره ناطقا رسميّا باسمها، وكم لدينا اليوم من نـاطق رسـمي باسـم الثـورة، أنـا هنـا لـست أحسده على هذا المنصب العالي، بل أدافع عن حقّ القصيدة في معانقة العالم وكـلّ تفـصيلة فيـه، وأن تلتفت يمينا ويسارا وإلى كلّ الجهات وتوغل في الأرض والإنسان، من الجور أن نحوّل القـصيدة إلى منبر خطابي لإعلان الحرب على أمم مـشغولة عـن صـياحنا وهياجنـا بإنتـاج المعرفـة والأسـلحة الرادعة

ـ أرفض أيضا أن نظهر كشعراء وفي كلّ مناسبة أشدّاء أقوياء متماسـكين، لا تدمع لنا عين ولا ننكسر أبدا ، هذا كذب مخدّر ووهم مـسموم، علينـا أن نعـترف

لبياض الورقة وللقارئ أنّنا نبهت أمام هذه الفوضى الخلاقة أو ربّما الخنّاقة والله أعلم، ثمّ لاشيء يدفع الأمم إلى الأمام مثل الاعتراف بنقائصها والإشارة إلى الآفات الكثيرة التي تنخرها، امّا ان نواصل هذا الشطح المحموم وتفادي الإشارة إلى الجهات التي تحاول تحويل وجهة الثورة، فهذه جريمة لن أشارك فيها

ختاما لهذا الحزن المتدفّق منّي في شكل لغة، أسأل ببساطة وعفويّة:

أيّها الشعراء محرّرو الأرض وصائنو العرض، جميل هذا التطريب المأجور ولكن، ألم تعشقوا بنت الجيران مثلا؟، أين هي في نصوصكم، ألم تحدّقوا في وجه الموت يوما، أين بشاعة وجهه في نصوصكم ؟، ألا تعانون من رقابة جديدة باسم العفّة والمقدّس والمحرّم من قبل الأوصياء على السماء ؟، أين ذلك البكم المفروض في نصوصكم ؟، أين أنتم في نصوصكم ؟، أين الليل والنهار والشكّ واليقين والحيرة والسؤال ؟......، أين وجه هذه العابرة الآن في الشارع المزدحم بالأشباه ؟، أين وجهها القاتل ونهدها السفّاح في نصوصكم الآمنة المطمئنّة ؟

آخر القول:

أحبّكِ

ليس لديّ اعتراض على أن أحبّكِ

في كلّ وقت وفي كلّ ركن من الأرضِ

لكنْ أهيب بحبّك أن ينزل الآن من هذه الحافلةْ

مزاجي زقاق بلا منفذٍ

وصداعي خليّة نحل

كما أنّني اليوم في خدمة العائلةْ

ايجابيّة صدمة العقل العربيّ

لن أحدّثكم اليوم عن شرعيّة ثورة ولا عن اتّضاح مؤامرة، بل سأؤكّد على الصدمة الايجابيّة التي يتعرّض لها العقل العربي في هذه اللحظة التاريخيّة الفارقة، نعم ثمّة أمر إيجابيّ تماما يحدث لهذه الأمّة رغم سيل الأحزان وركام الأشلاء، رغم هول التطاحن الاجتماعي والسياسي الذي يدور كالرحى ولا يبقي ولا يذر، ورغم ما أسمع من هدير لأنهار دماء لم تتفجّر مصادرها بعد، لن أسرد عليكم ما نعاينه جميعا من كوارث وما يحجبه عنّا المشهد العربيّ الرهيب، نظرا لتشعّبه (إنّ التفاصيل كروم، والعناقيد كثيرة)، وسأذكر مباشرة بعض أفضال هذا الاضطراب العظيم على الإنسان العربي الذي قضّى دهورا في خنوع فكريّ وانصياع آليّ للفرد الحاكم والقطيع المحكوم:

ـ الفضل الأوّل : تفطّننا جميعا ودون استثناء مواطن واحد إلى وجود مواطنين مختلفين عنّا تماما وبشكل جذريّ أحيانا، فقد اكتشفنا بغتة أنّ الأغلبيّة الصامتة خوفا من بطش الأنظمة السابقة، تتكوّن من فرق وأحزاب واتّجاهات فكريّة وعقائديّة، ولبعضها أهواء وميولات متطرّفة وحادّة، ورغم ما أنتجه هذا الاكتشاف من ذهول في مجتمعاتنا المدنيّة التي عاشت طيلة عقود في مناخ الرأي الواحد واللون الواحد والشعب المتجانس المتناغم والآمن المطمئن، كما كانت أبواق الماضي تروّج لذلك، ما أشبهنا في ظلّ هذا الذهول المستشري بكائن طيّب تفطّن فجأة أنّ لشقيقه وجهة نظر مخالفة للإجماع الأسريّ المقدّس، أعتقد أنّ هذه الصدمة تأخّرت كثيرا وآن أوانها اليوم لنعترف بالآخر ونرضى بقبوله وننفتح لآرائه ونذعن لحقيقة مشاركته لنا في

الوطن، سيكون تجرّع هذه الحقيقة في غاية الصعوبة والمـرارة عـلى الـشعب العـربيّ المترعـرع في ثكنات كبيرة أُطلقت عليها تـسميّة الأوطـان جزافـا، سـيطول نـسبيّا عنـاد المـدمنين عـلى التطـابق الاجتماعي، وستصمد إلى حين مكابرة رموز الأنظمة الشموليّة الزائلة، ولكنّ حركة التـاريخ لا تعـود إلى الوراء وسيرضخ الجميع في آخر المطاف لحتميّة التعـايش الـسلمي في مجتمـع متنـوّع ومتعـدّد ومختلف المشارب الفكريّة والعقائديّة، وهذه حسنة أولى من حسنات الحراك العظيم الـذي يعـمّ الوطن العربي

ــ الفصل الثاني : الانفجار الهائل لجملة الأسئلة التي ظلّت مكتومة أو مؤجّلة لفترة طويلة، ومن ضمن هذه الأسئلة

* طبيعة العلاقة المثلى بين الدولة والدين؟

* مكانة الفرد في نظر المجتمع أو الجماعة إن شئنا؟

* هل للحريّة جنسيّة؟، بمعنى هل للثقافة والمرجعيّة العقائديّة للمجتمع سلطة تحـدّ مـن حريّة المواطن العربيّ المـسلم؟، أم أنّ القـيّم الكونيّـة لحريّـة التفكـير والتعبـير هـي المرجـع الـذي ننشده؟

* هل من الممكن في ظلّ القفزة الحـضاريّة الكـبرى أن نتراجـع عـن مكتـسبات وإنجـازات حقّقتها شعوبنا رغم تـضييق الجبـابرة المعـزولين، ومـن ضـمن ذلـك الإبـداع الأدبي والفنّـي الحـرّ، وتشرّب أجيال عدّة لمفاهيم حداثيّة وممارسة الملايين منّا لفـنّ المـسرح والـسينما والرسـم والـرقص والموسيقى وغيرها من الفنون التي يريد البعض منّـا تقييـدها، بـل ثمّـة مـن يعلنـون صراحـة عـن رفضهم القاطع لها باعتبارها منافية للأخلاق مثلا، حسب وجهة نظرهم طبعا ؟

* هل نحن بصدد تأسيس دول مدنيّة توفّر الحريّة والعدل والكرامة لكلّ مواطنيها بعد عقود مظلمة من الجور والاستبداد، أم أنّنا نتورّط يوما إثر يوم في نمط اجتماعي وسياسيّ مشابه تماما للدكتاتوريات البائدة، مع اختلافات شكليّة وتحت مسميّات جديدة؟

هذا نزر قليل من ركام الأسئلة الذي يجثم اليوم على العقل العربي، والذي سينبثق منه المجتمع المنشود بإذن الله، رغم وحشة الطريق وخيانة الشقيق والصديق.

المجال لا يسمح بسرد الايجابيات الكثيرة التي تكمن في لجّ هذا الاحتقان الشعبي في عدّة أقطار عربية، وما أردت التأكيد عليه من كتابتي لهذه المقالة، هو أنّ العقل العربيّ كان في أشدّ الحاجة للتعرّف على نفسه، فلكم عاش في انفصام مسكوت عنه، وآن الأوان لكي يتصالح مع نفسه أو يتصادم معها والنتيجة إيجابية في كلتا الحالتين، فلا شيء أبهى وأجمل من الوضوح والحسم .

آخر القول:

دعوني عاريا كالدمعة، طاهرا كالنار

لا تستروني بغبار حروبكم اليومية التافهة

ولا تجرّوني إلى الغدير

دعوني أتأمّل نموّ الموت في كنف الجسد

وانبثاق الوردة من جثّة الغراب

على خطى فاتن حمامة

أريد حلاّ

العمّ حسونة شيخ في السبعين، قضّى النصيب الأكبر من حياته في حانوت لبيع الخردة، غير بعيد من الحيّ الذي جمعنا فيه القدر، لكنّه تخلّى عن كلّ نشاط حياتيّ منذ خمس سنوات تقريبا وقرّر تضييع ما تبقّى من حياته الباقية في أمرين اثنين لا ثالث لهما : مراقبة الجيران ولعب الورق، ولا علاقة له لا من قريب أو بعيد بعالم الغيب ولا بأسرار اللغة العربيّة ولا بطواسين الحلاّج المصلوب، يقسم يومه بالعدل بين النميمة وضرب الطاولة بيده المرتعشة كلّما فاز على أحدهم في لعبة "الشكبّة"، ولكن لعمّي حسونة خصلة محمودة واحدة، ألا وهي حرصه الشديد على الوقوف في طوابير كلّ انتخاب على حساب يوم ضائع لم يرقب فيه جيرانه ولم يكسر خلاله شوكة أحد أعدائه في مقهى الحي.

خالتي فاطمة من ألطف عباد الله، قليلة الخروج من بيتها الملاصق لبيتي تماما، يصلني صوتها وهي تصلّي وتقرأ الفاتحة وسورة " الكوثر " فلم تنجح المسكينة في حفظ غيرهما وليغفر لها الله الأخطاء الفادحة التي لا تتعمّدها إطلاقا وهي تكرّر ما حفظته في كلّ صلاة، وأستطيع القول بكلّ مسؤوليّة أنّها غير ملومة ولا عتاب عليها، بل العكس تماما، فقد اجتهدت بعد عمر طويل من الكفاح في سبيل تربية أبنائها ولم تعرف من البيوت وفضاءات الحياة الكثيرة غير دار والدها وبيت زوجها المرحوم الذي كان فظّا معها والحقّ يقال أحيانا، دون أن أسهو عن تأكيد معرفتها ببعض الأماكن التي تقام فيها أعراس الانتخابات، كيف يمكن لوم خالتي فاطمة على نطقها

الخاطئ العفوي لما تيسّر من القرآن الكريم وهي لا تفرّق بين حرفين اثنين من اللغة ولا بين الوطن والسيّد الجاثم على عرش الحكم؟، هي امرأة مظلومة منذ كانت ومع ذلك تحبّ الخير للجميع : الحاكم والمحكوم والظالم والمظلوم ، فهي ليست مطالبة بمحاسبة الآخرين الذين لهم ربّ يرقبهم ويعدّ لهم ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب أصلا، كما أنّ لها ثقة عمياء في خلق الله رغم ظلمهم لها مرارا وتكرارا، والدليل على ما أقول أنّها تتبع ابنها الأكبر في المواعيد الوطنيّة الحاسمة، وتضع الورقة التي يفرضها عليها بكرها الغالي في "صندوق عجب"، وهي واثقة من إضافة حسنة أخرى إلى قائمة حسناتها.

جاري الطيّب عطّار الحومة، له ذاكرة فيل، وأراهن من يشاء على حفظه لكلّ محتويات دكّانه بدءا بعدد قطع الشوكولاطا التي انتهت صلوحيتها وانتهاء بعدد الفئران الذين ازدان بهم فراش الفأرة الحقيرة المستوطنة في الثقب المتاخم لرفّ "المقرونة "، ولا شيء آخر يستهوي ذاكرته، لا حنين لأحد، لا حديث مع أحد إلاّ في ما يتعلّق بالبيع والشراء، يقال أنّه قدم صغيرا إلى العاصمة من أقصى نقاط الجنوب، ولم يجرّب الزواج، لم يرتبط بكائن حيّ ولا ميّت باستثناء الفأرة الحقيرة التي تنطّ فوقه بمعيّة أبنائها وأحفادها كلّما استلقى ليموت قليلا، فهو لا يحلم أبدا، لذلك وصفت نومه بالموت، هو كما هو وأنا أقدّره وأجلّه، فرغم غرابة شخصيته ورغم سطحيّته وسذاجته وأمّيته الموروثة عن جدّه الأوّل ربّما، يبقى مواطنا مجتهدا في عمله ومساهما في تقرير مصير الأجيال القادمة، فلا يُعقل أن أغفل عن تثمين غلقه لدكانه كلّما دعاه الواجب، وتضحيته بدخل نصف يوم أو أكثر ليلبّي نداء الحكومة ويختار مرشّحا لقيادة البلاد ويحدّد مستقبلنا المشترك .

كلّ من ذكرتهم من المواطنين الأجلاّء المقرّبين من القلب، يكدّسون أصواتهم داخل صندوق الانتخاب، جبلا شاهقا من الجهل المقدّس والعفويّة القاتلة والأميّة المانعة لكلّ تطوّر وتقدّم وتحرّر، وكلّ صوت من أصواتهم الوطنيّة غير المشكوك فيها، يساوي صوتي تماما أنا العبد الفقير إلى ربّه تعالى، العبد المثقف الذي كرّس حياته اليتيمة للكدّ المعرفي وسبر أغوار العالم والإنسان وفَهِمَ للأسف الشديد ما سلم من إدراكه الآخرون، العبد التائق للحريّة، العبد المصاب بالوعي في الصميم، العبد الذي يضيع صوته في زحام صندوق الانتخاب الديمقراطي جدّا، العبد الذي يصرخ الآن دون صوت : تحيا الديمقراطيّة لكنّني مثل فاتن حمامة " أريد حلاّ "، فمن الجور أن يقودني عمّي حسونة وخالتي فاطمة وجاري الطيّب عطّار الحومة، أريد حلاّ لي ولآلاف المثقفين والمبدعين وملايين المتعلّمين الواقعين تحت حكم " الديمقراطيّة القاسية ".

الفهـــرس

سيرة ذاتيّة لمحمد الهادي الجزيري

* شاعر وإعلامي وكاتب عام اتّحاد الكتّاب التونسيين.

نشر له:

* مجاميع شعرية:

- زفرات الملك المخلوع ـ 1994
- رقصة الطائر الذبيح ـ 1996
- ليس لي ما أضيف ـ 2003
- أرتميدا ـ 2006
- لا شيء في مكانه ـ 2009
- العاشق لا من يُنجده ـ 2013
- يا ... يا ـ 2013 (شعر بالدارجة التونسية)

* رواية

- " جنّة الذئب " 2011

- شارك في عديد الملتقيات الأدبية والشعرية ، في بعض الأقطار العربية، من ضمنها العراق ، الأردن، سوريا ، ليبيا ، لبنان وغيرها.

- يقدّم منذ مطلع القرن الحالي عروضا فرجويّة رفقة نخبة من الموسيقيين والمسرحيين، تهدف إلى تقديم الشعر بشكل جديد.

- فاز بجائزة مهرجان الموسيقى بتونس عن قصيدته " لا عشق بعدك " التي لحنّها وأدّاها الفنان التونسي صلاح مصباح.

- يكتب بالصحافة التونسية والعربية منذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي.

- له برامج إذاعية وتلفزية ذات منحى ثقافي وأدبي.



الدار التونسية للكتاب

بلقاسم المرزوقي

الكوليزي مدرج - د – الطابق الأول مكتب 130

43 – 45 شارع الحبيب بورقيبة – تونس

الهاتف / الفاكس: 33 98 33 71

البريد الالكتروني:mtl.edition@yahoo.f r

أختي الكبرى ترتدي الحجاب وترفض بشراسة أن تقاسمها امرأة أخرى زوجها، أمّا زوجتي فلا شيء فوق رأسها غير شعرها الذي لم يترك لها الأبناء بعض الوقت للعناية به، وعلى ذكر الأبناء، أتعبني أكبرهم فمرّة يغرم بالفتيات وأحيانا يولع بالصلاة، وفي ما يخصّني أنا فقد أكدّت على ذئبية الإنسان في روايتي الجديدة "جنّة الذئب" التي سيلقيها ابن عمّي في النار فهي من عمل الشيطان، أمّا بنات العائلة فسيضعنها تحت وسائدهنّ، ويعدن قراءة بعض مقاطعها قبل النوم وبعده، فالرواية طافحة بالانتصار لأجمل وأرهف خلق الله: المرأة.

كدت أنسى خالي المدمن على التجارة وابنه العاطل عن الحياة، فكلاهما لا علاقة له بروايتي ولا بالشعب التونسي وأحزابه المائة، وفي الحقيقة إنّ عائلتي فسيفساء من الأهواء والميولات والنوايا المعلنة والمضمرة ومع ذلك يحرص أفرادها على حضور كلّ مأتم وكلّ عرس، ولا يمكنني إحصاء عدد المرّات التي اختلطت فيها دموعنا، ولا المرّات التي رقص فيها الجميع جنبا إلى جنب، تحت أنظار وحماية عمّنا الحاج وصهرنا خطيب الجمعة، وجارنا النقابي الصارم، وأؤكد لجميع المحرومين أنّهم محرومون إلى حدّ الساعة وإلى الأبد، إلاّ في حالة قبولهم لإحدى دعواتنا ومشاركتنا الغناء والرقص ومقاسمتنا ماءنا وملحنا ودفئنا وحبّنا للحياة ولكلّ الكائنات الحيّة والميّتة، على فكرة أيها المتلصصون على أخبار عائلتي، عاد أخي الأوسط من غربته الإجباريّة، وأخبر أمّي برغبته في طرد البعض منّا وأبناء وبنات الجيران من بيتنا الصغير والرحب في الآن نفسه، كما وشوشها أنّه يحلم بتحويل بيتنا النابض منذ كان، إلى "محكمة تفتيش" لفرز الصالح من الطالح، ولا شكّ أنّكم تسمعون الآن ضحكة أمّي البهيّة وقهقهة أفراد عائلتي التونسي.

ولو أصختم السمع أكثر لتوضّح لكم دعاء أختي الكبرى: "ربّي يهدي ما خلق".

ها إنّها تواصل دعاءها وهي تتهيّأ لإعداد وليمة تليق بعودة أخينا الأوسط، في حين تصلني أنا فقط، دندنة أختي الصغرى وهي تتجمّل في غرفتها وتتواصل على الفيسبوك مع حبيبها الأول....

الدار التونسية للكتاب

الثمن: 12.000 د.ت

